

أَعْلَامُ الْعَرَبِ

٦٢

الْجَا حِظْ

تأليف

الدكتور أحمد كمال زكي

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

مقدمة

في أحد أيام المحرم من عام ٢٥٥ / ديسمبر سنة ٨٦٨ أعلنت وفاة أبي عثمان الجاحظ في البصرة ، وحمل النبا الى المعتز بالله خليفة بغداد فصرخ في جزع « لقد كنت أحب أن أشخصه الى وأن يقيم عندي ! » فقال أحد جالسيه : « انه كان قبل موته عطلا بالفالج » .

ولقد كان الخليفة يعلم ذلك من غير شك ، غير أنه أبى الا أن يعلن عن أمنية طالما تمنها سلفه ، منذ أن أفلح المأمون في ضم هذا الكاتب العظيم الى ديوان رسائله ، وان لم يمكث فيه سوى ثلاثة أيام ودع بعدها العمل الرسمي ، دون أن يودع رجاله ، حتى استطاع أن يصاحب الجميع على اختلاف المشارب وتعدد الأهواء .

ان تلك الأمنية يمكن أن تقفنا بيسر على كنه الطبيعة الفذة التي سجلت للجاحظ آثارا فكرية وفنية ، لا تزال الى اليوم موضع عناية المتأدين والمجتمعين .. لا من حيث انها مرحلة تاريخية من مراحل تراثنا العربي ، ولكن من حيث انها تتاج انساني يكفي أنه نبه على فساد أوضاع حاولت ثورة الزنج (٢٦ رمضان سنة ٢٥٥ / ٥ أغسطس سنة ٨٦٩) أن تقوم منها ما قدرت على التقويم وفهمته .

وربما بدت المغالاة في تلك القالة ، الا أن من يقرأ « كتاب
البخلاء » الذي وضعه الجاحظ في آخر أيامه ، الى جانب بعض
رسائله التي ترتفع أحيانا الى مستوى الكتب النادرة ، يلحظ
أن « صاحب الزنج » أو قائد الثورة كان ينطلق في الواقع من
حيث انتهى « صاحب البخلاء » .

فثمة ضغط واستعلاء ، وأموال وثراء . وتباه وقبض يد ، من
جانب السادة الذين أثروا نتيجة تحول المجتمع الاسلامي — في
القرن الثالث الهجري — من طور الزراعة الى طور التجارة ، وثمة
عامة وسفلة ، ورعاع وعبيد ، يفسون ويحقدون ويحسدون ،
ويريدون القوت والعمل والانطلاق .

وهناك علة سياسية تنخر في عظام الخلافة الهاشمية اسمها
« الترك » أطاحت في عجل — بعد حكم المتوكل — بالمنتصر
والمستعين والمعتز ، غير أنها كانت تعمل دائما على أن يكون هناك
الغش والرشوة والكذب والنفج والنفاق . لكن بعض هذه
أو كلها من الصفات التي يمكن أن تشيع في الطبقة التي أثرت ،
وهذه أشبه ما تكون بكل طبقة بورجوازية — وعذرا عن استخدام
هذه التسمية المحدثه — تطل برأسها ، وتريد أن تثبت أقدامها
على الأرض .

وهناك تحزب من جانب الأعاجم ، وتعصب من جانب العرب ،
وصراع بين الأفكار ، وجواذب كلامية ، ومناقشات سوفسطائية .
وكلها تذوب فيما يكتب الجاحظ ويبعث به الى أقاصى الشرق

والغرب ، فيعمل عمله في اثاره الآراء وحفز الهمم وحشد الجهود
للتقصي والمتابعة .

ان الجاحظ لا يظل الكاتب الانساني للعرب أو للمسلمين
فحسب ، ولكن في وسعنا أن نزعّم أنه أسهم أيضا في تكوين
هؤلاء . فلعله أعطى بعض الأبعاد الجديدة للكثير من قضاياهم
الأخلاقية ، حتى انا لنجرؤ فنقول : انه أفاض من سخريته وذكائه
عليهم شيئا ربطهم به — دون أن يشعروا — الى الأبد .

وعلى الرغم من أنه يعترف بفضل واحد كابن المقفع وآخر
كسهل بن هارون — وكلاهما عربى اللسان فارسي الدم —
فالشئ الذى لا شك فيه أنه خرج بالنثر العربى من حدوده
الكلاسيكية الى حيث يصبح ظاهرة اجتماعية عاشت كما ينبغى
أن تعيش كل ظاهرة متفاعلة .

وكم كان خليقا بمن تبعه أن ينحو نحوه ، فيعكف على
الحياة دون الاكتفاء بنقل الموروث — عن طريق الرواية —
ويرصدها ذكريات وتجارب ونظرا ومحاولة فهم وتفلسفا !

وانه هو ليسجل ملحوظاته الأولى مبتدئا بمرحلة تعليمه في
الكتّاب ، وهى الحقبة التى كانت فيها الحياة البصرية تؤذن
بالتحول الى بغداد ، واستطاع الحمراء أو الموالى أو أحرار الموالى
الفرس — ويسمون الآزادمرديّة — أن يتولوا أمور الحكم
ويسيطوا سلطانهم فى القصر والمسجد والسوق ومجلس المناظرة ،
وقد شاهد مواكب العجم وهى تتوقف أمام قصور البصرة ، وعلى

خفاف أنهارها الكثيرة ، ورأى انطواء العربى على نفسه فى
اقطاعه التى كان العبيد يتناقصون فيها يوما بعد يوم ، وباع هو
نفسه أحقر السلع فى سوق القصارين وسوق الدباغين وفى الكلاء
والقرضة ، وشاهد العوائين والمكدين وسمع الى اللصوص ،
وعرف حيل المحتالين والمستعرضين ، فبقيت هذه الحياة المحلية
منطلقا لآفاق أرحب ، عرف فيما بعد كيف يستغلها فى بعض
كتاباتة .

وظل طيلة حياته وهو يرى كيف تتشكل المملكة الاسلامية
فى كنف خليفة بغداد ، وكيف أصبح عليه أن يجد فى تحصيل
العلم ، كما يجد الموالى ، ليصل الى هذا الخليفة بادئا بعظيم ما
فى بلدته ، ومتحولا الى أمير فأمير .

وما كان لأحد أن يأسى على ذلك أو يعارضه ، لأنه كان مبدأ
عاما فى عصر تضخمت فيه الأناية واستبدل بالايثار أثره . وكان
الناس يعزفون عما يعوق حركتهم الى أمام ، ويختارون أقصر
الطرق مهما تكن طبيعتها ، ذلك أن المهم هو : خذ ما تستطيع برغم
من لا يستطيع !

وقد يعيننا التاريخ الآن ، فهو منتصف القرن الثانى الهجرى .
وكان المكان أعقد بقعة سكانية فى العالم ، حيث يتلاقح العرب
بالفرس ويمتزج الروم بالزنج ، والزط بأهل السند والبربر
والصين ، وثمة كلدانيون أو نبط ودماء آشورية وأخرى عدنانية
وقحطانية . وكل هذا يدفع بالحدث الى شباب قلق وذكى وواع
وعميق الأغوار ، وبه استطاع أن يقاوم روح العبداء

— الشعوبية — التى كان العرب الأصلاء يقابلون بها فى كل مكان ، وان ظل دائما مقدرًا أمجاد الأولين من غير العرب .

على أنه اذا كان لابد من أن يظهر الجاحظ على حقيقته ، فلا بد من مناقشات مخصصة مع آثاره ، وهى كثيرة كثرة تدهش القارئ الى حد بعيد ، لو أنه عرض لها فى مقدمة كتابه « الحيوان » . ويبدو أن الكاتب نفسه أراد أن يعدد بقلمه — ولو على سبيل التيه — هذه الكتب ، ويبدو أن علينا نحن أن نطيل الوقوف معها لضالة ما حفظ عن حياته ، برغم هذه الذكريات التى اعتاد أن يسوقها فى ثنايا كتبه بلا ملل .

والقضية على أى حال قضية فرد متطلع ، لكنه كان هين الأسرة . وتمكن من أن يظفر بالكثير ، ويثرى ، ويحتل مكانة بارزة فى مجتمع قد يصل هوانه به الى حد العبث بتفكيره .. فيكتب فى الشيء وتقيضه ، متحدثًا عن الكلب والديك مثلاً حديثاً يبدو عادياً ، أو يبدو كما لو كان صدى لولعه بالجدل العقلى ، أو امتداداً — قد نوه هو به للعجب — لمنافرات الجاهليين ، لكننا لا نلبث أن نتبين صلته الوثيقة بالوضع السياسى أو الاجتماعى ، كما تتبين هذه الصلة — بصراحة ووضوح — فى رسالته المشهورة « مناقب الترك ، وعامة جند الخلافة » .

ومهما يكن من شيء فان الجاحظ الذى كان الخلفاء يتمنون الاتصال به ، مدين لهم ولأن دونهم بكل ما ييدر منهم فى حالات صفوهم وحالات كدرهم وعلى شتى الظروف ، فاذا كان علينا

أن نوفي — بدلا منه — حقهم من التقدير ، فلا بد من أن نرجع القهقري نحو قرن تقريبا نهايته عام ٢٥٥ .

على أننا نتوقف بعض الشيء لنقدم هذه الصفحات عن الجاحظ ، وما نظرنا بحاجة الى اشارة خاصة الى المنهج الذى اصطنع . فقد أخذ به « الأصمعى » أولا ثم « ابن المعتز العباسى » بعد ذلك ، وكان كلاهما محاولة لمزج حياة علم بآثاره وعصره فى اطار من التاريخ المحقق ، وهذا الصنيع — فى رأينا — وفاء لمنطق السيرة الفنية فى حد من حدودها المختلفة .

ولسنا نريد بعد ذلك أن نتطرق الى العمل نفسه ، فهو بين يدى القارئ يتفحصه ويقول فيه كلمته . لكننى أرجو أن أنبه على أنى اذا كنت أفدت من أعمال المحدثين فى « الجاحظ » وبخاصة جاحظ الدكتور طه الحاجرى ، فقد كانت افادتى الكبرى من آثار الجاحظ نفسه ، بالاضافة الى طبقات المتقدمين وتواريخهم . كما أرجو أن أنبه على أنى رأيت أن الحق السيرة بقسم صغير ضمنته شروحا وتعليقات رأيتنى مضطرا اليها ، لالقاء الضوء على ما رأيت أنه لا يمكن أن يظل فى الظلام ، واستغنيت بذلك عن التهميشات المألوفة محددًا كل شرح أو كل تعليق برقم خاص .

متطلعا فى نهاية الأمر الى ما اعتاد الجاحظ أن يلفت اليه نظر قارئه ، وهو حسن النظر فى الكتاب ولباقة تناوله ، حتى لا يضيع فى اشتجار القيل والقال . والله المعين .

أحمد كمال زكى

مصر الجديدة فى يوليو سنة ١٩٦٦

الباب الأول

البحث عن طريق

١ - عمرو بن بحر

على تلك الدرب التي تخرج من سكة المربد ، وفي بقعة مهمة يغور فيها نهر صغير من عشرات الأنهر التي عرفت بها مدينة البصرة القديمة ، يقف غلامان صغيران بعيدين عن أترابهما يرمقانهم في لهوهم بهدوء لا يتناسب مع سنهما الغضة ، وفي يد أحدهما — وكان أسمر ناتئ الجبهة بارز العينين — لوح وبعض أوراق ، وبدا الآخر أطول قامة دقيق الملامح حاد النظر .

ربما كانا في السادسة أو السابعة — فلا أحد يدرى متى ولدا تماما — الا أنهما عرفا في الحي من النجباء ، على خلاف ما بينهما من أصل وأسلوب تنشئة وطريقة حياة . وكان الأسمر القصير يتحدث دائما عن أبيه بحر الكنانى الذى ودع الدنيا ولما يزل فى ريعان الشباب وخلف أمه تعيش به على دخل هين ، وأما الآخر دقيق الملامح فهو لم يكن يعنيه الا أن يردد أنه على هوان أصله — على الأقل فى نظر صديقه العربى — يستطيع أن يقول ان أباه سيارا ينتمى الى عرق فارسى ثابت .. ولكنها الأيام !

غير أن هذا أو ذاك ليس بأبرز الخصائص ولا بأقواها ،
وانما العجب العاجب حقا هذه الرغبة التي طالما اعتملت في صدر
الصغيرين .. أيهما يسبق الآخر في مجال العظمة ؟

كأنما كانا يستشفان الغيب فينبئهما بأنهما من العظماء
لا محالة ، أو كأنما اجتمع أهلوها على أن يصل كل منهما الى
ما وصل اليه كبار البصرة ، فحملا الرغبة كلما وعزما معا . وراحا
يجدان ويحفظان ، تسعفهما ذاكرة لاقطة وفطنة ملحوظة ، وعرفهما
معلم الكتاب ندين صابرين على مشقة الرواية واستيعاب آيات
القرآن . ولم يكن فيها ثمة نقص ولا توان ولا اهمال ، ولعل
هذا يفسر وقفتهما الطويلة المتأنية .

فهاهم أولاء الأولاد يلعبون أمام عدة بيوت بعضها من القصب
والبعض الآخر من الآجر ، عقدت عليه سحائب الغبار طبقة قاتمة ،
وهاهم أولاء يخوضون في الوحل ويتراشقون بالحصى ونوى
التمر ، بينا أمهاتهم من حشوة النساء يصرخن عليهم بلا جدوى ،
وهنا يقول الأسمر البارز العينين لابن سيار :

— تترك أمثالك لتلازمني ومعى هذا ؟

وكان قد أشار الى اللوح والأوراق ، فقال ابن سيار وهو
لا يرفع عينيه عن غلمان الحى :

— ان كنت تعنى بأمثالى موالى العرب فان العرب ليسوا
سودا يا عمرو .. أتعرف هذا ؟

فقال ابن بحر :

— أعرفه ، ولكن يقال ان فيهم من السود كثيرين سماهم
رواة المسجد بالغربان يا ابراهيم !

فقال ابن سيار :

— فأنت اذن غراب الحى يا عمرو !

ويضحك ، ولكن عمرا لا يتركه ينعم طويلا بضحكه ، اذ يسرع
فيلقمه حجرا عارضا بهجنته واختلاط نسبه ، فيقول :

— ولكنى لست من بلخ ، ولم ترضع أمى بلبنها غيرى
يابن الحمراء .

تلك سبة ، ولكن ابراهيم بن سيار يعلم أن صاحبه لا يتورع
مطلقا عن أن يسلقه بمثلها أو أفحش منها وطالما أثير فغضب ، ولهذا
أثر أن يسكت . ولكن بقدر السهولة التى يمكن أن يتحمل بها
صبيان هذا النوع من الغمز والتجريح ، كان كبارهما يشقون به
بعد أن عصفت العاصية بالمدينة الكبيرة وامتدت الى بغداد
— التى كانت فى ذلك الوقت لا تزال فى نهاية ربع قرنها الأول —
وسائر مدن العراق . حقا كان العرب اذ ذاك هم السادة ، لكن
القطاعات السكانية الأخرى من « الأعاجم » حملوا الضغن على
« سادتهم » خفية وعلاية .

وربما بقى شيء آخر قد يخطئ النظر فى الكشف عنه ، وان
تكن الأخبار تحمله ملوحة به فى وجه هذا الكنانى السليط . ولقد
اعتاد هذا الشيء أن يؤرقه ، ويحاول هو جهده — بقدر

ما يستطيع — أن ينقضه ، ولكن ما السبيل ؟ ان ابن سيار يخبره ،
ببراءة يصطنعها ، أن أمه تقول لصواحبها وهن في أفنية دورهن
الحقيرة : ان أم عمرو لم تكن زوجا لعربي قح ، ذلك أن رجلها بحر
ابن محبوب بن فزارة كان مولى زنجيا لأبى القلمس الكنانى
الفقيمى ، وعمل جمالا لواحد من سادة العرب اسمه عمرو
ابن قلع .

أهذا ممكن ؟

تلك هى المعضلة ، وأنى له بمن يصحح هذا الوهم الذى يريد
أن ينال منه وينحدر به الى حيث يقف الحمراء ؟ وكانت الأم
نفسها لا تزجى له رأيا قاطعا ، وطالما راوغت ، وفى كثير من الأحيان
كانت تقول له :

— انه الحسد يا ولدى .. فأنت عربى صريح النسب كريم
الأصل ، ولن أدعك حتى تأخذ بأداب قومى وجيرتى .

كلام جميل ، ولكن أين هو من الحقيقة ؟

لقد كان ولا شك خليقا أن يستوى على مكان البروز بين
الأعاجم — ومنهم صديقه ابراهيم — ثم ينتهى شأنه أو ينتهى
شأنهم هم كما انتهى شأن الآخرين ، ولكن أهذا يكفى والقوم
من حوله يتصايحون بالنسب ويتهاجون بالهجنة ؟ ان أحدا ليس
أحق منه بالدفاع عن أرومته لهذه الشوهة التى تجعله أمثولة
بين أقرانه . وليكن عنيدا ، وليكن قوى النفس بالغا فى القوة

النفسية ، فهو على قوته تلك سيظل كالأخرين يبحث عن الأصل
الغربي الصريح .

وكان من الجائز أن تفسد هذه البلبلة حياته وربما دمرتها ،
ولكن صبره وعناده وذكاءه واستعداده العقلي الكبير .. كل أولئك
كان يدفعه دفعا الى أمام حتى ضرب المثل بجده معلم الكتاب ،
وتعود هو أن يحمل لوحه في تيه ليريه لأترابه في الوقت الذي كان
فيه ابن سيار لا يكف عن التنديد به مزحا ، زاعما أن المعلم لا يحبوه
بوده الا رثاء على دمامته .

ذلكم هو عمرو بن بحر الذي ولد حول العام التاسع والخمسين
بعد المائة ، وانتمى الى بنى كنانة بن خزيمة ^(١) . واتماؤه هذا
بحق أو بغير حق لم يكن يعنى أكثر من محاولة للتمسك بأهداب
الكبر ، وظل ، بعد ذلك أو قبل ذلك ، من أسرة رقيقة الحال انتهى
أمرها بأن جاورت أسر الموالي في هذا الحى الفقير من أحياء
البصرة . فضلا عن أن التاريخ يقدر أنه على الرغم من أن عمرو
ابن قلع — أحد آبائها الأولين — كان صاحب النسيء ^(٢) في
الجاهلية فانها لم تنجح كثيرا في التجارة ، وضربتها حركة الفتوح
الاسلامية في مقتل ، حتى أصبحت على الاسلام من عامة القوم ،
تقنع بنصيبتها الضئيل من العطاء السنوى المقرر .

ولا يحسن الاستطراد بعد ذلك ، فان الطفل ابن الأسرة
المغمورة القاطنة في هذه البقعة الحقيرة من أحياء البصرة كان يبحث
خطاه الى الشهرة ، دون أن تكون هناك خطة معينة لتثبته .

بل ربما كانت أمه التي راحت تكفله بمشقة كانت تطمع في أن
يجيد الكتابة ليعمل أى عمل ، ولكن لا بأس في الوقت نفسه من
أن يمتن أية مهنة تدر عليه وعليها أى ربح !

وعندما كان يردد على سمعها أسماء شيوخ الجامع من أمثال :
« الخليل بن أحمد » و « ثمامة بن أشرس » و « أبى الهذيل
العلاف » و « الأصمعى » و « أبى عبيدة » كانت تهز كنفها
وتقول له :

— سينفعونك يا بنى ، ولكن هل تستطيع أن تصل اليهم ؟
أرجو ذلك بشرط ألا نبيع بقية ما خلفه لنا أبوك .

ويؤكد لها انه عندما يقترب من واحدة من حلقات هؤلاء
الشيوخ يفهم الشيء الكثير ، ويعلن أيضا انه يجد لذة كبيرة عندما
يحضر مناقشة بين الأصمعى وأبى عبيدة ثم يخبرها أن سرى اسمه
أبو عمران موسى بن عمران يشنى عليه دائما ، كلما التقى به
في المسجد ، فتقول :

— ان كنت تظفر منهم بطائل : فأنت مشكور يا عمرو ، وهم
مشكورون .

وتسكت ويضطرب هو ، غير أنه يحس أنه مكلف باحتمال
تبعة محورها لقمة العيش . ومثل هذا خليق بأن يبدل أطوار
النفوس في بعض المواقف ، وبخاصة مواقف الأزمات ، ولهذا
لم يكن يجد غضاضة اذا امتدت يده الى ما يمنحه له موسى ،
وكان على ندرته يرضى أمه شيئا ما ويثيره هو شيئا ما . وتبدو

الظروف كلها فى هذه المرحلة المبكرة من حياته متعاقدة على أن يسير فوق الشوك على نحو يثير حفيظته على البشر ، ويملاً نفسه بالحقن على الانسان ، ويوجه سخطه الى هؤلاء الناعمين فى قصور بغداد ودور البصرة الكبيرة — ومنها دار موسى التى كانت ملتجأ للعلماء والمتناظرين — لكنه فيما يبدو كان يقبل كل أمر يسر لا يخلو من تساؤل ، أو لعله راض نفسه على ذلك ، بل ربما هون على نفسه بضحكة ما . وستكبر هذه الضحكة مع الأيام ، لا لتصبح مجرد قهقهة عالية ، وانما لكى تكون دنيا كاملة من السخرية والسحر والمرارة .

لكنه من ناحية أخرى كان يراقب ويدقق ويحصى ويطيل السمع الى أصوات الناس والحيوان ، ولعله قلد صوتاً أو حركة أو أقبل على حشرة من الحشرات يقلبها وينخسها فى بطنها بمسمار . وأكثر ما كان يلذ له — بل لعله الأمر الوحيد الذى يجارى فيه صبيان الكتاب — أن يعدو وراء أحد الكلاب الضالة ويحصه بالحجر ، أو يلقي عليه لوحه اذا رآه نائماً فيرض عظامه (٣) .

لماذا ؟

لا ندرى ، فليس كل شئ يمكن تفسيره فى سلوك غلام يعيش ظروفاً مضطربة فى عصر تتشابك فيه القيم !

ويحدث فى يوم من الأيام أن تنقلب الآية — وهذا يهزه — فيرى كلباً يصول وسط أبناء الحي عاوياً نابحاً ، والجميع يجرون منه فيصرخ قائلاً :

— انها لحظة من لحظات الثأر .. يا غوثاه !

وهناك واحد من أصحابه الصغار — اسمه مهدي — يقف بجانب حانوت أبيه القصاب ، فيشب عليه الكلب وثبة تطيح باللوح ثم يدفع بفيه الى وجهه . وقد رأى عمرو أن من العبث منع هذا الكلب عما هو فيه ، واكتفى بمراقبة المعركة غير المتكافئة . وكانت النتيجة : أن الكلب تمكن من ققع ثنيته في موضع الجفن من عين صاحبه اليسرى ، فخرق اللحم الذى دون العظم الى شطر خده ملقيا به على وجهه وجانب شذقه ، بينما راحت الدماء تنبثق بقوة ، حتى ظن من رآه أنه مقضى عليه لا محالة ، وبخاصة عندما شوهد لا ينبس كأنما أسكته الفزع الأكبر (٤) .

٢ - أبو عثمان

حكى عمرو حكاية مهدي لأمه ، فأعلنت عن اشفاقها المصطنع بتقليب شفقتها ، ثم نصحته بترك منداعباته الثقيلة للكلاب وغيرها . بل راحت تندد بكل ما تراه منه من اهتمام بالحيوان عامة ، فالعاقل من الا يشغل نفسه الا بما يملأ كفه من أكياس الدراهم ! .

ولم يكن فى الواقع يريد أن يكون عاقلا بالحدود التى ترسمها أمه ، فهناك السلحفاة التى أودعها دهايز بيته ، وهناك جرد اعتاد أن يراه يقفز هنا وهناك كلما هدأت حركة البيت ، ولحظ أكثر من مرة ثعبانا يطل برأسه من احدى فجوات الجدار المشرف على السبخة الآسنة .. وقالت له أمه : انه يطلب الجرد ! وأما الفراشات

والضفادع والبراغيث ، فهي دنياه التي يرتادها ، أو يجب أن يرتادها كلما ترك لوحه وورقه .

على أن أمه ذكرت ان صاحبه ربما مات ، فما دام الكلب قد أعمل فيه أنيابه على هذا النحو الذي وصفه ، فلا بد أن يكون مكلوبا ، والكلب داء خطير يبدأ بأن ينبج المصاب به ويعطش أشد العطش ثم قد يبول علقا في صورة الكلاب قبل أن يموت . وقد انتهز فرصة فراغه من بيع ما معه من السكر الأبيض ، فأسرع الى بيت مهدي يدفعه فضوله أكثر مما تدفعه رغبته في السؤال عن سلامته ، فاستقبلته أمه حفية به .. انها أطيب من أمه ، وقالت له انه نائم ، فسألها :

— هو بخير يا أماه ؟

أجابت :

— الله لطف به وقد خيط موضع الجرح .

قال :

— أبال جروا أم هرا يا أماه ؟

فأجابت :

— لا ، وشفاه الله !

وظل ينتظره أياما حتى رآه ذات يوم في الكتاب ، فأخذ يطره بوابل من الأسئلة ، ولا يرى في وجهه من القطع الا موضع الخيط الذي خيط به ، وسرعان ما تبين خطأ أمه ، فلما عاد اليها قال :

— ان ما ذكرته عن الكلب الكلب يحتاج الى مراجعة ، وسأتيك يوما بالحق الصراح .

على أن محاولاته في سبيل ذلك توقفت فجأة ، فقد نزلت
أسرة إبراهيم بن سيار عن الحي فجأة ، وأحس هو فراغا لم يكن
يملؤه استرجاعه أيامهما الأولى ، وقد أصر على أن يحمل النبا
لمعلمه فما زاد هذا على أن قال :

— اذن فقد فقدنا درهما يابن بحر !

ويأخذه عجب أى عجب ، ولكنه لا يلبث أن يدرك قيمة
الدرهم ، وهنا يعاهد نفسه على أن يظل وفيا لها . بل ربما فهم
بوضوح سبب حرص أمه على أن تربط بين العقل والدرهم دائما ،
بل لابد أن يكون حديث الناس عن البخل والجود صدى لهذه
الرغبة التى أفصح عنها معلم الكتاب الجشع .

— المال هو كل شيء !

ومن أجل المال يجب أن يشتغل ويتعلم ، وما على أمه الا أن
تهبىء له الفرص أو تتركه يخط مصيره بيده دون أن يشغلها صغر
سنه ، فهو قادر على أشياء كثيرة ، وهو يجذب اليه فى كل وقت
عيون الناس وعقولهم ، ولقد يسمع أحيانا من يقول « ما هو
بانسى هذا الحدقى الصغير » فيتألم بعض الوقت ولكنه لا يلبث
أن يسرى عن نفسه بما تعود أن يقبل عليه .

ولقد بدا واضحا أن أبا عمران موسى بن عمران عقد العزم
على أن يتعهدده ، ولم يجد هو غضاضة فى ذلك ، بل ربما هنا
نفسه . وفى الأيام التالية كان يئنه لواعجه ، ويحدثه عن آماله
ومتاعب أمه . واعتاد موسى أن يمتحن حفظه لمقطعات الشعر

وأراجيز البدو ، فيعجب أن تتسع ذاكرته لكثير مما يسهل
نسيانه ، ويقول :

— ما أشبهك بالمتكلمين في حديثهم !

وكان هو من المتكلمين أو مخالطا لهم على الأقل ، وكثيرا
ما خاض في مسائل الاعتزال والارجاء بآراء مسددة ، وشد
الغلام الى مجالسهم وحثه على أن يحفظ قصائد صفوان الأنصارى
وسليمان الأعمى وهما يردان على بشار بن برد في تفضيله النار
على الأرض ، ويعرضان لمسائل من العلم الطبيعي .

ولقد كبر عمرو وكنى بأبى عثمان علانية ، بعد أن هجس
بالكنية خاطره طويلا ، وفي المسجد دار بجماعة من رفاقه حريصا
على أن يخاطبوه بها ، فجلس الى موسى الأسوارى الذى يجتمع
العرب والفرس حوله فيفسر لهم آيات القرآن الكريم بالعربية
والفارسية جميعا ، ثم انتقل الى مجلس الخليل بن أحمد . غير
أنه لم يكد يستقر شيئا حتى لمح صديقه ابراهيم ، وكان أبوه
سيار يمسك بيده حتى اقترب من الشيخ فسلم وقبل ما بين يديه ،
وان هى الا لحظات قصار حتى كان ابراهيم هدفا لأسئلة الخليل .

ان المسجد يستقبل اليوم الشخص الذى وعد بالشهرة !

وقد بدأت المناقشة عادية ، ثم ما لبثت ان ارتفعت الى المستوى
الذى يجاوز مجرد حفظ آيات القرآن ومتون اللغة . وبدأ ابراهيم
عملاقا ، واكتسى وجهه قناعا من الصرامة والجد ، وتصور عمرو
أنه لا يمكن أن يكون — برغم حديثه — دون أحد من شباب

الشيخ الذي يجلسون هنا وهناك . وعلى الرغم من أنه هو كان يمكنه أن يجيب عن الأسئلة التي راح الخليل يسدها لآبراهيم ، فإن هذا استلب الألباب بهدوئه وثقته وبعباراته المركزة المنغومة . ومن بعيد كان موسى يرقبه ، فلما انتهى المشهد قدم عليه وهو يقول :

— يمكنك من الآن أن تسبقه ، بل يمكنك أن تكون أكبر من هؤلاء الشيخ ، لكن على ألا تقول ما ترك الأول للآخر شيئا ، وسأعطيك من الكتب ما تقدر على استيعابه ويزيدك فضلا وعلمًا .

وأعطى كتبًا في أخبار العرب ومنازلهم ومنافراتهم وأنسابهم ، فكان يحفظ منها وينقل بعضها إلى كرايس زحمت أركان غرفته المتواضعة ، واستطاع أن يطمئن — فيما بينه وبين نفسه — إلى أنه ليس دون صديقه إبراهيم . لكن أمه ، فيما يبدو ، ساءها ذلك ، أو لعلها لحظت كسادا في تجارته المحدودة ، وقد عبرت عن استيائها بطريقة عجيبة ، فقد حدث أن طلب منها الطعام فجاءت إليه تحمل طبقا فوقه عدة أوراق وكراسات ، ولما سألها :

— ما هذا يا أماء ؟

أجابت :

— هذا الذي تجيء به كل يوم !
فخرج مغتما إلى المسجد الجامع فلم يجد أحدا من أصحابه ، غير أن موسى بن عمران لمحّه وشاهد شحوبه واكفهار وجهه فسأله برفق :

— ما شأنك يا أبا عثمان ؟

وكالعادة حدثه بما جرى ، فصحبه الى بيته وقدم اليه الطعام .
حتى اذا استوفى منه حقه مد اليه يده بكيس فيه دنانير وهو يقول :
— أشبع أمك يا ابن بحر بما تشتريه من السوق ، أيكفى
خمسون دينارا ؟

وهتف أبو عثمان :

— خمسون كاملة ؟

فضحك موسى وهو يدفعه الى الخارج ، وقال :

— لا تنقص شيئا والله !

وسرعان ما كان أبو عثمان في السوق يشتري الدقيق والزبيب
والزيت والتمر ، ولم يرجع الا وحمالون يتبعونه بمئونة كبيرة ،
وعندما رأت الأم كل هذا صاحت قائلة :

— من أين لك هذا ؟

قال :

من الكرايس التي قدمتها الى !

٣ - في المربد

على الرغم من أن أبا عثمان كان متهلل الخاطر متطلق الوجه ،
فقد بدا في ذلك اليوم من عام ١٧٠ عابسا . ان ابن سيار أنهى اليه
نبا وفاة الخليل بن أحمد ، وذكر له : ان ذكرى الراحل ضاعت
في تولية يحيى البرمكى الوزارة للرشد .

لم يعرف بالنبا من قبل ، لأنه انقطع أسبوعا أو نحوه في

استظهار بقية ما أعطاه له موسى ، والاستعداد للسفر الى البادية مع جماعة من المسجدين ، وبخاصة بعد أن اطمأن الى أن المتبقى من الخمسين دينارا يهيء لأسرته قوتها على نحو مرض طوال غيابها . على أنه اضطر الى أن يندد أمام صاحبه بقول سمعه من الخليل ولم يرض عنه وهو : « تكثر من العلم لتعرف ، وتقلل منه لتحفظ » ورد عليه ابن سيار بأنه يوافق على ذلك تماما ، لأن التقليل وحده للصدر ، في حين أن القليل والكثير للكتب . وقال أبو عثمان : ان الموافقة قد تجوز من حيث المبدأ لأن الانسان يستطيع فعلا أن يدرب نفسه على استيعاب ما في أى كتاب ، ثم أعلن عزمه على أن يقوم بذلك بطريقة تضمن له أسباب المعرفة بالقدر الذى يجب أن يرفعه على الجميع .

وفي هذه اللحظة برز من ناحية قصر زربى فى المربد أبو سعيد الأصمعى وأبو عبيدة معمر بن المثنى المتنافسان على مشيخة اللغة فى المسجد بعد وفاة أبى عمرو بن العلاء ، وأسرع ابن سيار فجذب يد صاحبه ليتعد به عن طريقهما ، وهو يقول :

— لتجول فى المربد يا أبا عثمان .. فهذا خير من لجأهما .

فقال عمرو :

— لعلك لا تترتاح الى أبى سعيد ؟

قال :

— ربما .. لكن لم تسأل عن السبب ؟

قال عمرو :

— حملته على الحمراء .

فرجع ابن سيار يديه ضائحا :

— ما هذا ؟ كأنك أصبت بما أصيب هو به من تعصب أعماه
عن الطريق السوى .

قال عمرو :

— أراك تردد ما يقوله الموالي في الجامع ؟

فصاح ابن سيار :

— وأزيد أنه سلفى متزمت وأكاد أكرهه .

قال عمرو :

— ربما كنت مثلك لا أميل إليه يا أبا اسحاق ، لكن يجب
أن تجعل للرجال أقدارا . وإذا كان لابد أن تتكلم في هذا فلماذا
ندع أبا عبيدة وفيه ما يسوء وينوء .

قال ابن سيار :

— رواياته عن لصوص العرب ؟

قال عمرو :

— أولى أن تقول : أحاديثه عن مناقب الحمراء ، لكنك تنسى
لحيته ووساخة وجهه أو قل دمامته .

وهنا انفجر ابن سيار ضاحكا ، ثم استدار الى عمرو فجأة
وهو يقول :

— أتتكلم عن الدمامة يا أبا عثمان ؟

وراح يتفرس في وجهه ، بينما شعر عمرو كأنما الدنيا تدور به ، وكان لا بد أن يتماسك وأن يواجه صاحبه بكل ما يسلك من عنف ، فقال بعد قليل :

— أنت تعيرني يا أبا اسحاق ؟

— ربما .. لكن ..

— تعيرني بقبح خلقتي ؟

— أنا لا أقصد تماما أن ..

— اذن فلعل هذه الخلقة تدهشك !

— ربما .. لكن ..

— اذن نبئني ما الذي يدهشك على وجه التحقيق !

— لقد أخطأت يا أبا عثمان .

— هل هما عيناى الجاحظتان كأنهما بطن حوت مبقور ؟

— حاشا يا أخى .. لم يخطر هذا لى على الإطلاق .

— اذن فأنفى الأفطس ما ..

— وهل أنفك أفطس يا أبا عثمان ؟

— هو كما ترى .

— أنا لا أرى شيئا .

— فلعللى اذن أبدو بلا أنف ؟

- بل ها هو ذا يعطى معظم وجهك .
 — ومن أجل ذلك تسكتنى به عن أبى عبيدة ؟
 — كلا والله .. انك واهم واننى لأتخاشى النظر اليك !
 — وما يدعوك الى هذا يا أبا اسحاق ؟
 — لقد كنت ..

- أفاشمئززا منه ؟
 — أستغفر الله ما عن هذا لى .
 — أم لم تسترح الى صغر أذنيه ؟
 — انهما جميلتان يا أخى .

— ما بالك هكذا تضطرب ، وعهدتك قادرا على الكلام ،
 على أننى أريحك فأقول اننى بهذا الوجه القبيح لراض ، وبقصر
 قامتى لشاكر الى الله ، فان سألتنى قلت : قبح الوجه الذى أغنانى
 عن نظرات الفضولين أمثالك يعلمنى أن الناظر فيه ان كان فطنا
 رأى فيه مقابلا للحسن كى يتدبر بديع صنع الله ، وان كان بليدا
 لم يزدہ النظر الا حسرة على أنه لم يوهب اللسان ليبين كم هو
 قبيح وأين يوضع بين كل مليح . على حين تكفينى قامتى القصيرة
 عن التوسع فى ابتياع الأقمشة ، حتى اذا جعت يوما وطلبت مع
 جوعى الكساء كفانى الله مؤونة استبدال أحدهما بالآخر ، وقدرت
 على الاثنين فسترنى الله وأطعمنى .

وهكذا راح أبو عثمان يضرب فى صنوف الكلام دون أن

يلحظ تجمع بعض القوم حوله ، وبدأ كما لو كانوا أخذوا بنصاعة
بيانه وقوة منطقته . غير أنه لم يلتفت اليهم الا عندما ارتفع صوت
من بينهم يقول في قوة ووضوح :

— انه يذكرني بحدائتي يا أبا عبيدة .

وقال أبو عبيدة :

— فلننتظر ماذا يقول الآخر .

وكان لابد أن يتكلم ابن سيار ، فقال في هدوء :

— تظن أنك غلبتني يا أبا عثمان ؟ موعدنا الغد ان كان في
العمر بقية ، وان غدا لناظره قريب !

وانصرف عجلا ، فارتفع صوت أبي عبيدة يقول للأصمعي وهو
يسحبه من يده ليبتعدا :

— انه يتكلم كما يتكلم الرجال ، وأحسب ما قاله خاله
أبو الهذيل صحيحا ؛ حفظ القرآن والتوراه ويحفظ الانجيل
والزبور !

ودوت هذه الكلمات في أذني أبي عمرو فجاشت نفسه ، وراح
يضرب في الطريق ساهما ، ولم يتوقف عن السير والتفكير
الا عندما ألم بجماعة من المربيين يجلسون الى أبي جعفر العنبري
الراوي الذي بدأ يجذب اهتمام أبي عمرو بتدفق فصاحته وطرافة
أخباره وسمعه يقول :

— يقول المروزي للزائر اذا أتاه وللجليس اذا طال جلوسه

« تغديت اليوم ؟ » فان قال نعم ! قال « لولا أنك تغديت لغديتك
بعداء طيب » وان قال لا ! قال « لو كنت تغديت لسقيتك خمسة
أقداح » .

وضحك المتجمعون وعلا ضجيجهم ، ولم يكفوا عن ذلك حتى
قال أبو عثمان وقد استطاب الحديث :

— وهكذا لا يصير في يده على الوجهين قليل ولا كثير .

وتطلع اليه العنبري وقال :

— أهو أنت ؟

فقال ضاحكا :

— لست غيري على أى حال .

وعاد المرديدون يضحكون ، فلما سكتوا قال أبو جعفر
العنبري :

— ان سمعت الى مثل هذا الحديث دائما ورويته فلن تجنى
الكثير ..

قال عمرو :

— انتى أمعن فى قراءة الكتب وأحفظ الأشعار والأخبار
وأجلس الى حلقات المسجد ، وفى المرید ألزم أبا مجيب وعبيدا
الكلابى ولا أهمل حلقتك .

قال العنبري :

— رواياتنا لا تغنيك عن البادية يا أبا عمرو ، فاعقد العزم
وسافر ، أو فاصحبني من غد الى الجزيرة أسمعك من الأعراب
مالم تسمعه قط .

قال عمرو :

— كنت عزمت على الرحلة قبل قولتك يا أبا جعفر ، وما دمت
على السفر من غد فخذني معك .

ومن المؤكد أن هذا الرجاء يتمشى مع رغبته التي أبدأها
لأمه ، لكنه يحلله من اتفاقه مع أصحابه المسجدين الذين أبدوا
رغبتهم في السفر معه منذ أيام . فان صحبتهم وان كانت تسرى
عنه وتضحكه ليس ينبغي أن تكون هدفا للضحك ، لأن للمزح
موضعا ، وله مقدارا متى جازهما أحد صار الخير خطلا ، واليوم
للعمل فقط .. للتحصيل العميق الذي لا يكون الا حيث يوغل
الأعراب في الصحراء ، ويطمثنون الى الشيخ والقيصوم ، ويغنون
للخيل والنوق ، وما أروعها حياة !

انه يريد أن يكون راوية .. ربما أفضل من الأصمعي أو من
هذا الذي هواه مع ابن سيار ، لماذا ؟ لا يدري ، ولكن ندر بين
أئمة العلم من لم يتحيز الى الحمراء ، وقد تحيز أبو عبيدة . ذلك
ظاهر تماما ، في حين كف الأصمعي عن أن يفصح عن رأيه بوضوح ،
فليكن .. والغد قريب ، وقد تكون الرحلة القادمة — أول رحلة
له — مفتاح هذا الغد .

لماذا يصّر الناس على أن يتصوروه غرا ؟

هل اثنا عشر عاما — أو نحوها — بالقليل عليه ليدو عاقلا
حصيفا يمكن أن يجلس الى الأخفش ، ويحفظ عن الأعراب
مشافهة ، ويعد نفسه بالاتفاق مع أبى جعفر العنبرى لأن يخرج
في رواية الحديث على أبى يوسف يعقوب القاضى ^(٥) .

القضية ليست قضية سنوات قليلة من العمر ، فثمة كثيرون
دونه سنا ، وأثاروا الدهش بذكائهم وسرعة تحصيلهم ، ولكنها
قضية استعداد واصرار ورغبة في التفوق ، ولديه هو ذلك بغض
النظر عن ضالة جسمه التى قد تثير بعض الشكوك في قدرته على
التحمل !

ولقد عانى هو ذلك منذ أول يوم بدأت فيه رحلة العلم ،
وساء أول ما ساءه أن رفقاءه راحوا يعاملونه معاملة الغلام الصغير
ولا يخاطبونه فيما يشكل عليهم ، وينصرفون عنه بأحاديثهم
الجادة ، ولكنهم سرعان ما تبينوا أن كل مرة يدفع فيها الى
الاختبار يرتفع الى مستواهم بسهولة . وكانت عيناه الواسعتان
إذا هدأت نفسه أغلقتا في أناة فترة ، ثم انفتحتا على بريق صاف
ينساب معه صوته ، وهو يمسح على كل أثر سيئ يمكن أن تتركه
كلمة « حدى » أو كلمة « جاحظ » .

بل كان الذين يدعونه باحدى الكلمتين لا يجدون مفرا من
الاحداق به ما وجدوا أنفسهم في فراغ يستطيع هو ملأه ، فكان

يفتنهم برواياته . ولا يلبث أن يلقي عليهم بآراء يقع فيها على
الفكرة الشائعة .. فخلف الأحمر شاعر أكثر منه راوية ، والمستقبل
لأبى نواس شاعر البصرة العاشق ، وابن المقفع أعظم الأعاجم الذين
تعلموا اللسان العربي وكتبوا به .

وكان الطريق زائعا لم تبرح صورته مخيلته على الاطلاق ،
وكان عمرو عندما وقف على بئر الحفير — جنوب غربى البصرة
بأربعة أميال — قد سأل عن آل الأصمعى من باهلة ، وكأنما كان
يريد أن يتثبت مما يشاع عن هوان هذه القبيلة . ولم يجد أحدا
لم يرتفع بخلف أبى عمرو بن العلاء — يريد الأصمعى بطبيعة
الحال — الى عليين ، وزاد ابن أخيه سران فتحدث عن أسرة سلم
ابن قتيبة الباهلى ، وعن دورهم التى تزحم البصرة مجدا وأناقة
وثراء ..

وهنا ود عمرو أن يسمع من أى أحد حكاية الأعرابى الذى
سووم على أن يدخل الجنة بشرط انتمائه الى باهلة ، فرضى بعد
لأى وعلى ألا يعرف أهل الجنة ذلك !

هو لم يعرف لماذا ، ولكنه كان يرى أنهم يدعون والادعاء
آفة الحى . وقد ودعهم غير حميد أو غير محمود ، فسيان ذلك ،
ملقيا بنفسه مع القافلة فى الطريق المنحدرة جنوبا ، وهو يروى
هجاء اليزيدى للأصمعى قائلا :

وما أنت ، هل أنت الا امرؤ اذا صح أصلك من باهله !

ولم يكن في النية الاتجاه الى الحجاز ، ولهذا ودع الركب
سكة الحجاج المتجهة شرقا في بادية العراق مارة بدومة الجندل ،
وولى وجهه الى البحرين ضاربا في أرض بكر ، وحيث كانت تنزل
طسم وجديس ، ومنى عمرو نفسه بأخبار عن القديم .

وبدت أرض الطريق معشبة والسماء صافية . الا أن الحر كان
لا يطاق ، وزاد النفوس اشتعالا أعرابى عرفه أبو جعفر باسم
يزيد بن كثوة العنبرى . وكان من الممكن ألا يلفت اليه هذا الأعرابى
أحدا ، الا أن قرابته لأبى جعفر من ناحية واغراقه في استعمال
غريب اللغة من ناحية أخرى جعله هدفا . فأثار الاعجاب والدهش ،
وتقل عنه عمرو جانبا من نوادره ، ولما ودعوه أبى الا أن يختم
أعجب ختام فقال :

— ارووا عنى .. أتيت بنى كش فاذا عرس ، وبلق الباب
فادرنق وادمج فيه سرعان من الناس . وألصت ولوج الدار ،
فدلظنى الحداد دلظا دهورنى على قمة رأسى . وأبصرت شيخان
الحى هناك ينتظرون المرية فعجبت اليهم ، فوالله أن زلنا نظار نظار
حتى عقل الظل ، فذكرت أخلائى من بنى تبر فقصدتهم وأنا أقول :

تركت بنى كش وما فى ديارهم

عوامد واعصوصين نحو بنى تبر

الى معشر شـم الأنوف قـراهم

اذا نزل الأضياف من قمع الجزر

وانصرفت وأتيت بنى كش وإذا الرجال صتيتان ، وإذا أرمداء
كثيرة وطهارة لا تحصى ولحمان فى جثمان الأكام (٦) .

وبرحيله أثيرت مسألة الأعراب وقضية البلاغة ، وبالقدر
الذى وعاه عمرو انتهى الى أن البلاغة ليست بالضرورة من قبيل
كلام ابن كثوة ، كذلك ليست التعبير بالكلام الملحون والمعدول
عن جهته ، حتى وان فهم هذا الكلام كما يفهم الناس عن النبطى
الذى قيل له : لم اشتريت هذه الأتان ؟
فقال : أركبها وتلد لى (٧) .

وكان فى الجماعة شاب اسمه قاسم التمار ملح فيه عمرو خفة
ونزقا ، غير أنه أنس به ، فلما قال « البلاغة هى ألا يبلغ الأمر بنا
حدالاكتفاء بالتمر » ضحك الجميع وأقبلوا على الزاد من الجردق
وقطع الجبن والزيتون والبيض وغيرها مما يسهل حمله فى رحلة
طويلة يعلم الله متى تنتهى .

ولقد كان فى نية عمرو أن يرجع برجوع أبى جعفر ، ولكن
بوصوله الى بادية البحرين — وهى بقاع خصبة تكثر فيها
الثمار — غير رأيه . فقد تعرف بابن أحد سراة البصرة يدعى
عبد الرحمن ، وقدمه هذا الى أبيه عبد الملك بن صالح الهاشمى ..
رجل عملاق مهيب ، صارم الوجه كبير العمامة ، يبدو كأنه قائد
جيش كبير ، الا أنه كان ولعا بانشاد الشعر وحكاية النوادر .
وعندما رأى فى عمرو راوية أصيلا دعاه الى ركه ضيفا ، وكانت
هذه الدعوة بداية صداقة ستظل بعد ذلك أعواما .

كان عبد الرحمن أكبر من عمرو شيئاً ما ولكن طول قامته كان يضيف الى عمره الحقيقي سنوات ، فضلا عن أن ولعه بركوب الخيل والخروج للقنص كل صباح كان يملأه فتوة وحيوية . ولقد رأى فيه عمرو كل ما اقتدده في نفسه ، غير أنه لم يحسده ، لأنه كان يرى أنه يمتاز عنه بالذكاء .

وقد وصل عمرو مع ركب عبد الملك الى القطيف والخط على الساحل ، وشاهد الأماكن التي جرت فيها الوقائع بين نجدة الخارجى وبين عبد القيس ، وسمع الى عبد الملك وهو يصف تلك الوقائع وكيف انتصر الخوارج . وزاد فروى أن الرماح الخطية تنسب الى هذا المكان ، لأنها تصنع فيه . ومن القطيف الى نجد أنفق الركب ستة أشهر ، التقى فيها عمرو بالكثيرين ، وعرف من عبد الملك وابنه الكثير ، ودون في أوراقه مالم تسعفه ذاكرته على حفظه ، لكنه أسف لأنه لم يعرف ما كان يود أن يعرفه عن طسم وجديس .

واذا كانت متاعب الرحلة قد بلغت منتهاها بعمرو ، فقد وجد هو على مشارف نجد منابت العرار والخزامى ، وتصور الشعراء الذين رتّعوا بين مرائبها وغنى بما يحفظ من أشعار المجانين أو عشاق ليلى . وكان انتقاله الى القلب مرتبطا بخطة رسمها عبد الملك بعناية ، وأحيط هو علما بتفاصيلها ، عندما حطت الرجال بين جبلى أجأ وسلمى اللذين اعتصمت بهما طيء منذ قديم واعتزت بهما فنسبا إليها .

وفي هذا المكان تفتحت عينا عمرو على القصص والأساطير ،
ووعى الكثير من أخبار العماليق وجرهم وجاسم وغيرهم من
عشائر اليمن . الا أنه كان يميل بهواه الى كل ما هو عدناني ،
وقد صرح بذلك لعبد الملك في احدى جلساته المسائية التي يطيّب
فيها السمر على نور القمر .

ولم يكن بد من أن تثار الموازنة بين قحطان وعدنان ، وكان
من رأى عمرو أن العدنانيين هم أرباب الفصاحة ، ويمدحون
بشدة العارضة وثبات الجنان ، وكثرة الريق ، والعلو على الخصم
مع ميل الى التحجير والطلاقة . ولم يجد عبد الملك غناء شديدا
في اقناعه بأن في اليمانيين من لا يقل شأنًا عما ذكر ، وفيهم على
أى حال من الشعراء امرؤ القيس ، ومن الخطباء قس بن ساعدة ،
ومن السجاعين شق وسطيح .

وقد انبرى أحد المراقبين — ويدعى سهل بن هارون — بعد
أن سكت عبد الملك فندد بمن يعنى بهذه التفرقة . وادعى أن
ما ينسب الى كل من عدنان وقحطان فيه من تزييد الرواة
ما لا سبيل الى انكاره ، لكن الأجدى أن يطال النظر فيما دون
في كتب الأعاجم الباقية ، وترجم بعضها ابن المقفع قبل مقتله .

وأسكته عبد الملك ، وحمد فيه ذلك عمرو . فان سهلا من
موالى يحيى البرمكى فيما يبدو ، أو هو من بنى الأحرار . ولحظ
أنه كثير الاشادة بفضل الشعوب القديمة ، كما أنه يهذر عن بخل

ملحوظ ، ومع ذلك فقد أعجبه قوله : « سياسة البلاغة أشد من البلاغة ، كما أن التوقى على الدواء أشد من الدواء » .

هناك من الموالى غير سهل كثيرون ..

يملاؤن المساجد فى العراق ، ويروون الأخبار ، ويقصون ، ويفسرون القرآن ، ويسوقون الأشعار القديمة وربما اختلقوها .

وهاهم أولاء يسافرون ليلتقوا بالأعراب كما التقوا بهم فى المريد ، حتى يستطيعوا أن يفصلوا فى أمر البلاغة كما فصل فيها من قبل ابن المقفع ، وهاهم أولاء ينصحون بالتبين والتثبت وبالتحرز من زلل الكلام كأن العريية لغتهم .

هنالك تثور الدماء فى أعراق عمرو ، فيزداد اصرارا على التحصيل . ويروح يضرب هنا وهناك وحيدا فى أغلب الأوقات ، ولا يعود الا بعد أن يكون قد اطمأن الى أنه لم يخرج من البصرة عبثا .

وقد انتهز فرصة قيام قافلة الى بلده ، فكتب لأمه وأرسل لها شيئا ، كما كتب للأخفش ومويس بن عمران وأبى يوسف القاضى .

٥ - فى المعترك

وفى الجحفة — على أربع مراحل من مكة فى طريق المدينة — نزل الركب بعد سفر طويل ، حيث كان فى انتظارهم رهط من الأعراب تحدثوا طويلا عن الدارمى وشعره ونوادره وبخله

وظرفه . وافتتن عبد الرحمن بن عبد الملك بمغامراته مع كواعب
الحجاز ، وخاض مع عمرو في حديث طويل عن المتفتيات ^(٨) اللائي
كان الدارمي يهفو اليهن ، فيثرن عليه الجميع .

واشتعلت الدماء في عروق عمرو .. لأول مرة يحس أنه يحتاج
الى هذه العلاقة التي سعد بها الدارمي مع المتفتيات ، فأين هن ؟
ويسمع الى أعرابي يقول انه — أى الدارمي — اجتمع ذات
يوم ببعض منهن هنا في هذا المكان ، وربما في ظل هذا الغيل ،
أو ربما عند ذلك السفح المنحدر في سر .

وضحك عمرو بلا سبب ، غير أن صورة المتفتيات كانت تملأ
عليه فكره ، وراح يتصور قدودهن وصدورهن وخصورهن ،
والخمار الذي يريد أن يغطي محاسنهن .. ولكن هيهات ! يستطيع
الرجل أن يعرف ما وراء ملابسهن ، ويناقش هو عبد الرحمن ،
ويعطى له عبد الرحمن من الأوصاف ما يريد أو أكثر مما يريد ،
ولم ينقطع الحديث بينهما الا بعد أن آمن بأن كل الذين سمع عن
مغامراتهم النسائية محقون .

لكن أين هو منهم ؟

هو قبيح ، وهم على وسامة ملحوظة .. هذا شيء لا تخطئه
العين ، وربما لو انفرد بواحدة اذا أتيح له أن يلقاها هنا في الجحفة
حتى وان كانت عجوزا من صواحب الدارمي أو من بناتهن
— فالزمن بعيد بينه وبين ذلك الظريف البخيل — لحسبته شيطانا
أو مسخا أو جنيا ، ولولت مولولة !

الا أن عبد الرحمن يخبره بأن الرجل لا يقاس بجمال الا جمال الروح ، ويطمئن هو .. فان أكثر من فى الركب يجمعون على أنه طبع على نفس جميلة ! وهو يحدثهم ويأسرهم بحديثه ، وهو يلقي عليهم بقصصه فينجذبون اليه ، وهو برغم شوهته ينزل بينهم منزلا طيبا .

ويخرج هنا وهناك .. فاذا كل شىء تغير .. زحف العمران حيث كانت منازل الدارمى ، وأقيمت الدور ، ولا أحد من النساء يسفر عن وجهه الا نفر من الأعرايات يسرعن الخطو ليختفين كلما وقعت أنظارهم على أى رجل .

لكنه يفيد كما أفاد الرواة من قبله . وفى كل يوم كان يشهد جديدا ببصيرته ، وتعى حافظته من الحكايات والأخبار وشوارد اللغة ما لا تستطيع حافظة غيره أن تعى . وكان قد أخذ نفسه بشيئين : أن يجمع من أشعار الجاهليين وأخبارهم ما وسعه ، وأن يتعرف الى لغتهم ويثبتهم وحيوانهم ، واهتم بصفة خاصة بالحيوان .

وهكذا أضحى عمرو مشغولا بأكثر من عمل ، فلما آذن الركب بالعودة كان كمن خلق خلقا جديدا . وبدا شابا مفكرا معتزا بما لديه فى أعماقه وأوراقه ، ووعد عبد الملك وابنه عبد الرحمن أن يزورهما كل يوم فى دارهما الفارحة .

غير أن دخوله البصرة بعد نحو عامين ملأه غبطة ، وبعد أن سلم على أمه وأخته أسرع الى المسجد الجامع ، وهناك علم

بأشياء عجيبة . فأما صديقه ابن سيار فقد أصبح من رواد قصر
مويس ، وقيل له انه يستطيع بسهولة مجادلة أهل الكلام والصابئة
ويناقشهم ، وأما أبو عبيدة والأصمعي فقد رحلا الى بغداد
فآثر الفضل بن الربيع وزير القصر — الأصمعي ورد أبا عبيدة ،
وقيل في ذلك ان العرب ظفروا في معركة من معاركهم مع الحمراء ،
وأما سهل بن هارون فقد كان في انتظاره رسول يستدعيه الى
البرمكي ليؤمره على امارة من الامارات .

وهذه أشعار النواصي المأجنة تملأ المسجد الجامع ويردها
المسجديون ، وكان على رأسهم شاعر اسمه الجماز وراوية اسمه
أبو هفان ، وكلاهما حمل الضغن لعمرو ، لأن «خلقته» لم تعجبهما .
وقد غادر المسجد الى داره وفي نفسه كمد شغله طول طريقه ،
فلم يملأ عينيه بالرياض والنهيرات والمباقل والكروم . ولم يستروح
رقة الهواء على الرغم من هجمة الشتاء المفاجئة ، لا ولم يسمع الى
غناء البائعين على سلعهم ولم يقلد هو أصواتهم كلما وجد نفسه
على مسافة تبعده عن أى شخص يمكن أن يسمعه .

أتراه فشل ؟

لماذا يسأل هذا السؤال ؟

هل لأن صديقه ابن سيار قد جمع حوله القلوب وحظي
بما لم يحظ هو به ؟ لقد كان موضع أنظار الجمع الذي جاب معه
الجزيرة . لكن هذا الجمع محدود ، وأين عدده من هذه الأعداد
المتزايدة التي تتردد على قصر مويس كل يوم ، وفيها المتكلمون

الذين لا يقدر عليهم الا الضالعون في العلم ، والناظرون في كتب
الأولين ، والحافظون حكمة اليونان .

كأنه محتاج الى بداية جديدة .. بل هو محتاج حقيقة الى
النظر فيما نظر فيه ابن سيار ، وليكن ما يكون . فان احتجت
أمه على شيء فهو يستطيع أن يوفر لها المال ، ولما لم يكن شاعرا
— وقد رجا ذلك عبثا — ولا كاتباً مع أنه يوطد عزمه على ذلك .
فسوف يتجه الى الاتجار بأى شيء ، ولا داعى لانتظار عطاء من
واحد كمويس ولا آخر كعبد الملك الهاشمى .

٦ - مع الأيام

فتن أبو عثمان عمرو — الشاب الصغير — بدار عبد الملك
ابن صالح ، ولكنه لم يهمل قصر أبى عمران مويس بن عمران .
وبين الاثنين كان يحضر مجالس آل سليمان ، وهم أبناء سليمان
ابن على عم السفاح ، وأقربهم الى قلبه محمد بن سليمان وكان
ذا نزعات عربية لا يتهاون فيها قط ، كذلك أخوه اسحاق الذى
كان بيته مليئا بالأسفاط والرقوق والدفاتر والقماطير .

لكن عندما قلد الرشيد عبد الملك — وبينهما عمومة — امانة
العواصم ، ورحل هذا الى حلب ومعه ابنه عبد الرحمن أحسن
عمرو بفراغ هائل ، واقطعت صلته بالجوارى اللائى كان
عبد الرحمن يقدمهن له فيعشن به ويعبث هو بهن ، ويتحسهن
ويسألهن عن أعماق أسرارهن — وقد كانت تلك هواية تشبه
هواياته الأخرى من مراقبة الحيوان الى تقليد الأصوات — التمس

المتعة في قصر على بن سليمان حيث كان يجمع المغنين وعلى رأسهم
الموصلى الذى كان جوهرة الموالى وأكثرهم حفظا للشعر الرقيق
ورقم الموسيقى ، وكان يترك بغداد الى البصرة ثلاث مرات
أو أربعا كل عام .

وعلى الرغم من أنه قوبل في دار الهاشمى مقابلة سيئة في أول
الأمر — وبخاصة من الجمار وأبى هفان الذى اتضح انه صديق
ابن سيار — فقد استطاع بمعونة أبى نواس أن يحتل مكانة
مرموقة ، وسيطر على الأفئدة بخفة روحه وفكاهاته التى لا تنتهى ،
بل انه كان عندما يقسو على أحد لا يفقد صداقته ، والدليل على
ذلك بيتاه اللذان قالهما في الجمار عندما تراشقا بهم « الأصل »
وقال هو على البديهة :

نسب الجمار مقصور اليه منتهاه

تنتهى الأحساب بالناس ولا تعدو قفاه

ولما شوهدي بيع السمك والخبز في سيحان وقال له أبو هفان
« أن تعمل جمالا كجدك الأول خير من أن تبيع بيع النبط »
قال له :

— يا ابن الفاعلة لأنت والله أحوج الى لسانى منك الى كفى ،
ولكن لن أفعل حتى تكون لك فطنة اللئيم وغفلة العليم ، وأين
هذا ؟

وعندما بلغ عليا نبأ هذه المساجلة قال له وهو يمزح مومنا الى
أبى نواس :

— أى صديقك عندك أثقل عليك يا أبا عثمان ؟
قال عمرو :

— تعنى الجمار وأبا هفان ؟
أجاب :

— نعم .

قال عمرو :

— والله ليس ابن هانىء بأثقل منهما على أى حال !
وضج المجلس بالضحك ، وكان من الحاضرين محمد بن على
ابن سليمان أتى أباه زائرا فقال للحضور :

— لو صبرنا عليه قليلا لجعلنا فى زمرة الثقلاء !
فقال عمرو :

— حتى أعرف معدن الثقل أسكت يا أبا على !
قال محمد :

— كأنى بأبى اسحاق يتكلم .

فصاح عمرو :

— من تعنى ؟

أجاب قائلا :

— ابراهيم بن سيار ، وكان يطرق مجلسى فى دارى قبل
سفره الى حران ، وعساك تزورنا يا أبا عثمان .

قال أبو هفان :

— عندما يعود أبو اسحاق ان شاء الله .

على أن هذا لم يكن ليصرفه عن الجد ، حتى وان كان في دور الأبالة ، فما بالناس بدور المهالبة والباهلين — هذا من قبيل الاقرار بالأمر الواقع لأنه كان لا يحبهم — وولد جعفر بن أبي جعفر المنصور وآل نوبخت الذين وفدوا على البصرة مؤخرا وفتحوا بيوتهم للأدباء ، والتقى عمرو عندهم بعلی البصير وعمرو ابن عبد الملك الوراق وأبي مسلم ، وعمرو الخاركي وابن أبي عيينة وابن يسير وابن منذر وأبي الشمقمق الشاعر العجوز الذي كان يخافه بشار .

أسماء لأعلام كثيرة .. أصحابها مكدون وأثرياء ، وفيهم اللص والشریف ، وفيهم خبيث اللسان وغيفه ، وفيهم الطيب الأصل والحقير المطعون في نسبه ، وفيهم الرجل الذي يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء والرجل الذي يطلب الكأس والمرأة وحكايات المجنون ويجتمع بعصابات السوء ويطرق الحانات والأديرة .

وقد يجد عمرو نفسه يرتاد دكاكين الوراقين متصفحاً ، ويجد نفسه مرات — ولا سيما ليلاً — على بساط خضرة يداعب كأساً ، ويتطلع الى غانية أو غلام ، ويرقص على لسان شمعة ساهرة .

وربما كان المناقش الفطن في جلسة علم بالجامع ، وربما كان

النديم الذى يجيد فنون الأدب والمزح فى جلسة شراب عند آل سليمان أو آل نوبخت .

وبعد هذا ينفرد بنفسه يكتب ويمزق ما يكتب أو ينقل ويجوّد تقوله ، الا أنه يحرص دائما على أن يكون مع الاخوان دون أن يثقل عليهم ودون أن يضيقوا هم به . وقد يوصيهم بتحامى كل ما يجر الى الملاحاة والتفاخر بالحسب والنسب ، مع أنه فيما بينه وبين نفسه يضيق بتيه الحمراء والآزادمرديّة .

ووقع فى هذه الأثناء شىء كان له أبعد الأثر فى ثقافته وان كان هدفه الاساءة الى العرب أولا أو العمل على الحد من ثقافتهم التى انحصرت — اذ ذاك — فى تفسير القرآن ورواية الشعر .

لقد بدأ البرامكة فطرحوا فى دكاكين الوراقة تراجم لكتابات الساسانيين ، وعمل سهل بن هارون على نشر ما ترجم من حكم الفرس ، وفى الوقت نفسه كانت ثمة قطع فارسية من ال « خدای نامه » وال « آيين نامه » ثم ظهر فجأة كتاب « البيكر » بالعربية وبقلم ابن المقفع ^(٩) ، ودعت الآزادمرديّة الى قراءته فاذا هو التاريخ الأسطورى للفرس .. يمجّد ملوكهم ويصف حروبهم ويتحدث عن سدنة نيرانهم ، ورغب عمرو فى الاطلاع على النص الفارسى فاذا فيه صور وتقوش غريبة .

وعلى الرغم من ارتفاع ثمن « الكاغد » الذى نقلت اليه هذه الكتب فانها كانت تحت يدى كل من يطلبها . وأفاد منها عمرو افادة عظيمة ، ودفعته الى التماس كتب ابن المقفع الأخرى ، وكان هو نفسه معجبا به أيما اعجاب .

ولما كان ذلك الكاتب قد ثقل عن اليونانية أيضا — فيما يروى — فقد سهل اتصال عمرو بالفكر الاغريقى . وكان يرى فى كتابيه « الأدب الكبير » و « الأدب الصغير » شبيها بما يروى عن أرسطو وسائر فلاسفة اليونان مما هو مذاع على أنه من كلام الناس المحفوظ .

على أن أصحابه لم يكونوا يدعونه يهناً باطلاعاته تلك ، فاذا أصر عليها تطوع واحد منهم — وليكن أبا هفان مثلاً — فزعم أنه لا يقرأ الرسالة أو الصحيفة أو الكتاب لأنه متعطش للمعرفة ولكن لأنه لا يجد ما يفعله . وعندما يقول له انه انما يتجر كما اتجر رسول الله ، يزيد فيقرر أن الأولين لم يقولوا ان القراءة تجارة . ويمضى هو ..

ثم يعن له أن يجرب حظه فى وضع كتاب ، ويخطر له أن يؤلف فيما رأى أن يؤلف فيه وهو مع عبد الملك فى الجزيرة ، الا أن رسولا من هذا الأمير لا يلبث أن يأتيه ، فلا يمر يوم حتى يكون فى الطريق الى آسيا الصغرى وقد ترك جانبا ما شغل به نفسه أياما .

٧ - معارف جديدة :

صادف وصول عمرو الى بغداد خروج جيش الرشيد بقيادة الفضل بن يحيى البرمكى لمحاربة يحيى بن عبد الملك العلوى ، وكان هذا قد شق عصا الطاعة على أمير المؤمنين عام ١٧٦ وقويت

شوكنه بيلاد الديلم . فلم يتعرف الشاب الصغير على معالم بغداد
كما ينبغي ، وان يكن أخذ بكثرة قبائها التي كانت ترتفع على
عمد دقاق ، ولفت نظره بوجه خاص قبة خضراء يسميها الناس
« تاج بغداد » وفي رأسها فارس رامح .

والشوارع مزدحمة ، والساحات غاصة بالحمير والبراذين ،
وكانت الجمال تلوذ بالجدران كأنها تتوجس شرا من هذه الحركة
المستمرة . ها هنا تظهر الملامح العربية — كما يقول الأعاجم —
وتؤكد لها العقل القليلة التي تتوارى خلف القلانس . وحتى
الشيوخ كانوا يلبسون الطيالس السود ، وتقرطق الغلمان بقراطق
الجواري اللائي يجهن عمرو ، ويغدون أمامه في رقة ورشاقة .

وهذا قصر الخلد على شاطئ دجلة الغربى حيث ينساب الماء
رخيا ونظيفا ، والجند ينزحون عنه جماعات ، ومن وراء قصور
تشيد ، سمع عمرو أنها ليحيى البرمكى ولأولاده وسراريه .
ثم اختلطت الصور ، فيقول عمرو لرسول عبد الملك :

— تلك اذن بغداد مدينة السلام والعرفان .

فيقول الرسول :

— أجل يا أبا عثمان .

فيقول ثانية :

— لقد عرفت لماذا تشد الناس إليها .

وفي الرصافة على الضفة الغربية كثير من العسكر الخراسانية
والأساورة ، وثمة بعض العرب . ودخلا الجامع — وكان نظيفا

وان لم يكن في عظمة جامع البصرة — وصليا فيه ثم تفرجا على دار الوزارة البرمكية شمالي الرصافة حيث الشماسية التي غدت المحلة الرسمية ، ومنها تصدر الكتب والأحكام .

وقد ودعا بغداد غير آسفين — فان عبد الملك خير من يقصد كما صرح عمرو لرسوله — ووصلا الى حديثة ، وهناك علما بنبا عزل عبد الصمد بن علي والى دمشق لنقله في اخماد الفتنة التي نشبت بين المضرية واليمانية في البلقاء ، وقابلا ابراهيم بن صالح الأمير الجديد ، وعدلا عن الاتجاه غربا الى تدمر ، مفضلين الضرب في الجزيرة شطر ديار بكر عن طريق الفرات ، أو أحد فروعه تارة والبراري والقفار تارة أخرى .

وبين صنوف السمك والحيوان وعجائب الخطط والآثار عاش عمرو أسابيع لم يعيش مثلها قط .

رأى النار تنبثق من الأرض فجأة في قفار سود ، فتذكر نيران العرب والعجم ، كما تذكر قول فلاسفة البصرة وبعض من وصل اليها من حكماء حران — التي سافر اليها صديقه ابراهيم — من كمونها وظهورها على نحو يختلف عن الضرام الذي يخرج من الشجر ، وعن الشرر الذي يخرج من الحجر .

كذلك رأى الثلج في بقاع ليست شديدة البرد ، ولحظ أن بلدة ما قد تكون أبرد وثلجها أقل أو معدوم حتى كأنما الماء لا يجمد للبرد فقط .

وعلى طول النهرات كان يقع على أنواع عجيبة من السمك
والغرائيق والكراكي ، وفي السماء يلبح العقبان والصقور
والغربان ، وفي البرارى الثعلب وابن آوى والخنزير والذئب
والضب ، فكان يقول « قرأت أن الناس لا يضربون المثل
الا بما يجدون من أصناف الوحش فقالوا أحذر من غراب ،
وأسمع من فرخ العقاب ، وأهدى من قطاة ، وأهدأ من الليث ،
وأكسب من الذئب ، وأخدع من ضب ، وأروغ من ثعلب ، وأظلم
من حية » .

وحكى للرسول فيما حفظ عن هشام بن سالم — وهو من
رهط ذى الرمة الراجز — أن حية أكلت مرة بيض مكاء ، فجعل
المكاء يحوم فوق رأسها وهو يسكو أى يصفر صفيرا حسنا ، فاذا
دنا منها وفتحت هى فاها تريد التهامه ألقى فيه حسيكة ، ولم يزل
يلقى فى فمها الحسك حتى أخذ بحلقها وماتت ، وأنشد الشاعر
فى هذا :

ان كنت أبصرتنى فذا ومصطلما فربما قتل المكاء ثعبانا
وكان لابد أن يحكى الرسول بدوره لعمره ، وعلى هذا النحو
تعاقب القصص والنوادر ، وبعضها يأخذ برقاب بعض ، حتى
وصلا الى منطقة الثغور وقد امتلأت أوراق عمرو بأطراف ما وقع
عليه بصره .

كذلك دون أمورا عن بعض الأحجار والمعادن كالنوشادر
الذى يصنع بتقطير الشعر وتدييره وكان يقال انه لا ينبع الا من

عيون حمئة في جبال خراسان ، والأرحاء العظيمة التي صنعت من
حجارة سود أصلها رماد صنَّع بطريقة خاصة ، والتوتياء التي
دبرت من أقليميا النحاس ، والمرداسنج الذي يستخرج من طبخ
الرصاص .

لكن بقدر ما عقد من آمال على لقائه لعبد الملك وابنه منى
بالخية ، فقد كانت نفسه قد سولت له أن يتوج اللقاء بقصيدة
ينشدها بين يدي القائد العظيم . واستطاع في الساعات القليلة التي
كان يفرغ فيها الى نفسه — بعد عمليات التدوين التي أصبحت
لازمة له — أن يظفر بعدة أبيات تفوح منها رائحة ظنها تغطي على
عيوب الفطرة وفجاجة الموهبة .

وكان يعرف تماما أنه قبيح ، وأن أى قوة في الأرض لا يمكن
أن تحمى مستقبله من ثقل شوهته . ومن ثم كان لابد أن يعمل
على التخفيف من هذا الثقل بالكلمة الحلوة ، ولذلك جعل
استهلاله :

ألا رب يوم جميل ذهب يعود بعودي بعد التعب
الا أنه لم يكد يردف بالبيت الثاني حتى أشار اليه عبد الملك
قائلا وعشرة آذان على الأقل تنصت :

— ما تعبنا والله يا أبا عثمان ولم تذهب الأيام الجميلة .
فأطرق عمرو شيئا وقال وقد بهت :
— لعلى أخطأت .

قال عبد الملك :

— بل أخطأك الشعر .

قال عمرو :

— أنا أعلم أنى لست شاعرا ولكن الشعر كثيرا ما يكشف عن

المستور .

قال عبد الملك :

— اذن هات مستورك يا أبا عثمان .

فمضى في انشاده واصفا مجلس عبد الملك الذى سبده كوكب
يضىء بنور المجد وأرضه سندس وحيطانه نرجس وأعلاه ذهب ،
حتى قال :

وجئنا بما شاء من نادر فبدلته بالهموم الطرب

فقال عبد الملك مقاطعا :

— أما النادر فلم نعرفه بعد ، ولكنى أرجو أن يكون فى

مجيئك الطرب يا أبا عثمان .

وانطوى عمرو على نفسه مفكرا .. انه فعلا ليس مؤهلا لأن
يكون شاعرا ، لكن مكانه باعتباره راوية حافظا ليس محل خلاف
على الاطلاق ، فهل هذا يكفى ؟ وهل يكفى أيضا أنه يرصد
ما يراه فى سفره ؟ ومن يدرى فلعله اذا حاول أن يقدم صورة
لقدرته على الانشاد نجح وحقق ما ينشده ، غير أن هذا أمر يحتاج
الى مراجعة مستأنية ، والطريق على أى حال لا يزال أمامه طويلا
طويلا .

لم يكّد يمضى يومان على وصول عمرو الى حلب حتى خرج عبد الملك بن صالح الى الصائفة ليوقع بالروم ، وأتاب ابنه عنه فى الامارة . فاتهى عمرو الى الاقتناع بأن ما ينبغى عمله انما هو التجول والقراءة فى النهار ، وأما الليل فقد كان للغناء والشرب والقيان ، على الرغم من أن عبد الملك كان يحظر الخوض فى أسباب اللّهو .

لكن عبد الرحمن كان يقول ان أباه عندما كان فى بغداد — منذ أسابيع — خلع سيفه فى دار جعفر البرمكى ووضع سواده وعمامته ولبس ثياب المنادمة وشرب كما لم يشرب من قبل أحد ، ويعقب على الواقعة بهذه العبارة التى بدت غريبة فى أذنى عمرو :

— أترأه كان يتوسل بذلك ليشدّ ظهر أخى ابراهيم بصهر من أولاد الرشيد ويوليه مصر (١٠) .

وكان عمرو يعلم أن أخا عبد الرحمن — وهو غير شقيق ويقيم دائما فى بغداد مع أمه الفارسية — أثير لدى أبيه على الرغم من أنه ليس ندا له فى امارته . وأخبره كاتب الأمير واسمه قمامة أنه يظفر به كثيرا كلما ذكر للبرامكة ، مع أن عبد الرحمن يؤكد أن أباه على هاشميته برمكى أكثر من الفضل وجعفر حاكمى بغداد الفعليين ، وأنه ساعدهما على رفع الحجر عن العلويين — وهم المنافسون لبنى هاشم — وبارك ادخال بنى سهل قصر الحكم برغم أنهم فرس ومجوس هذه الأمة .

وانكتبناه !

أهناك شيء بين الأب والابن ؟

وهل تتكرر حكاية يوسف النبي أو الأمر تقمة من جانب عبد الرحمن على الآزاد مردية ، ومن ثم فهو عائب على أبيه أن يرد معهم موردا واحدا ؟

وشرع يكتب ، ولكنه توقف . فهناك أشياء كثيرة لا يجد نفسه قادرا على تسجيلها في الكاغد ، حتى لكأنه غير صريح تماما عندما يمسك بالقلم . وبرغم جهوده للانطلاق من أسر الممالة فقد كان يحس أن عبد الرحمن الهاشمي على صواب في حين يخطيء أبوه ، لكن الورق لا يتسع أمامه لهذه الحقيقة الكبيرة لأن وراءها أن يبعد هو عن علوية وزلزل سوى الجوارى اللائي يزحمن مجلس المنادمة .

وأراد أن يخرج الى السوق ، وكان مرافقه قمامة ثرثارا عظيما ، يقول كل شيء ولا يفهم الا القليل . ويحبه دائما على أن يستخدم الأسجاع . ويتكلف الزخرفة ، كما يسأله أن ينظر الى الغلمان نظرة العاشق المدنف لأن فيهم فتنة . بل ان من فضل الغلام على الجارية أن هذه اذا وصفت بكمال الحسن قيل هي وصيفة غلامية أو كأنها غلام ، وأكثر من هذا قول الله تعالى « يطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون » ولم يقل يطوف جوار فانتات .

واهتز عمرو ، ولم تستطع معالم حلب ولا تاريخها ولا ناسها ولا أشجارها وأنهارها أن تشغله عن ديبب الدم الذي يكاد يفجر

عروقه . ولقد ظن قمامة أنه أقنعه ، وكان هو قد اقتنع فعلا ، لكن اقتناعه كان في موضوع آخر بعيد عما تكلم فيه قمامة وأسهب .

ان صراعا بين الأب والابن يوشك أن يقع . ولتذهب الجوارى والغللمان الى حيث ألفت رحلها أم قشعم ، لكن هل لم يعرف المأفون — أى قمامة — أن الله عز وجل ذكر الحور العين أكثر مما ذكر الغلمان ، وأن ريح الجارية أطيب ومشيتها أحسن وصوتها أرق وقلبه — قبل ذلك — اليها أميل ؟

وكان الزحام قد اشتد في السوق ، وتجمع الناس في قلق وعصبية وصراخ أمام الخوانك والدكاكين والعربات والحمير ، وراح عمال المحتسب يتحركون هنا وهناك ، ويضربون بعض المارة بالسياط ، فقال عمرو لقمامة :

— لنعد يا أبا عوف قبل أن تصيينا سياط هؤلاء .
قال قمامة :

— وعلىّ هذه العباءة يا أبا

وسقط أحد السياط فوق ظهره قبل أن يكمل ، فكان أسرع من الهرة في الفرار ، وأما عمرو فقد كان حانوت القماش خير ملجأ ، واضطر الى أن يدفع عشرين درهما كانت مما يدخره لأمه . وكان قمامة قد انتظر تفرق العمال ، حتى اذا أمن الغارة ظهر يصب لعنته على الشرط الجهلاء .

ولكن عمرا قال ناقلا الحديث وجهة أخرى ربما كانت تشغله أو ربما وجد فيها مخرجا من ثرثرة قمامة :

— أتتكر يا أبا عوف أن الأمير لسان لبني العباس ؟

أجاب :

— عباسيته فوق الشك يا أبا عثمان .

قال عمرو :

— فلماذا يقال عنه انه برمكى ؟

قال قمامة :

— وهل هناك تضارب يا أبا عثمان ؟

أجاب عمرو :

— لا أعتقد ، وانما هى أشياء أهم بكثير من حديثك عن
الغلمان والجوارى والحمير والمزح .

فقال قمامة :

— لا تعرض بى يا أبا عثمان فانتى لأستجهم نفسى ببعض
الباطل ، كما يقول أبو الدرداء ، مخافة أن أحمل عليها من الحق
ما يملها .

قال عمرو :

— أرجو على أى حال أن تجعل باطلك ما يجرى فى حلب ،
والرأى أن تتحدث مع الابن وأبيه .

فقال قمامة :

— يا سيدى وأين نحن الذبول من الرؤوس !

وكانت تلك اشارة الى أن قمامة ينفض يديه من كل ما يجرى
فى قصر منبج ، فقال له عمرو :

— اذن فلنخض فى الباطل ، ولتنزل على رأسك الصواعق .
— وحينما وصلا الى القصر وقد أقبل الليل ، كان قمامة قد
انقلب انسانا آخر يتقطر أدبا ويذوب خجلا . فى حين اتجه عمرو الى
صديقه فى غرفته الخاصة ، فقاما وصليا ، ثم أفضيا فى الحديث
حتى جاء وقت الحجامة . واذا بحجام يقبل عليهما بشرطه فيريحهما
شيئا ، ويقدم اليهما الطعام فيأكلان ويفسلان أيديهما ويضمخان
نفسيهما بالخلوق ، وبعد ساعة دعا عبد الرحمن حاجبه ، وقال :

— فليبدأ الغناء ، ولا يدخل على أحد .

وسرعان ما ارتفع من وراء الديباج ضربات شجية من آلة ذات
أوتار ، وهمهمات رخية تقول :

— يا مولاي .. أى الأصوات تريد ؟

فالتفت عبد الرحمن الى عمرو ، وهو يقول :

— هذه درة اشتريتها من قنسرين .. كنت يومذاك لا أريد أن
أزيد متاعبى بشراء جارية فوق العشر اللائى أملك ، لكن النخاس
دفع الىّ بأبدع أدبية وأرق مغنية ، قولى أى شىء يا درة .
وانساب صوتها مع الايقاعات الهادئة ، وهنا صاح عبد الرحمن
قائلا :

— ارفعى الستار يا درة فهذا أخى أبو عثمان عمرو أكرم
ضيف وأخلص حبيب .

وبأسرع من حركة الستار قال عمرو :

— على ألا تنظري في وجهه وتقولى أعوذ بالله !

وتم كل شيء على ما قدر ، وشغل نفسه بمتابعة الأجساد والسيقان وحركات الأذرع والأصابع ، ومال عليه عبد الرحمن وهمس :

— اختر يا رجل أى واحدة منهن غير درة ، فانها وحياتى سابقتك الى فراشك .

وعندما اختلى بمن اختار ، ارتكب أول معاصيه . فقد رأى أنه أهدر عشرين عاما فى لحظة طيش ، وأباح لنفسه أن يخطئ ، على أن عبد الرحمن قال له فى الصباح :

— انها غدت ملك يمينك فأين المعصية يا أبا عثمان ؟

٩ - ليس ابليس !

لو امتد بقاء أبى عثمان عمرو عاما واحدا فى الشمال ، ورأى عبد الملك بن صالح يغزو أرض الروم حتى يبلغ أقرة ويفتح عمورية ويشهد الفداء (١١) بين المسلمين والمسيحيين فى طرسوس ، لرأى بنفسه ما ربما حوَّله من مسامر ومنادم وراوية الى جندى .

لكن عمرا كان قد اضطر الى العودة الى البصرة عقب سماعه بموت أمه ، ولم يعد الا بعد أن زوجت أخته ، وفاته زيارة الرشيد لحلب ومنبج واغداقه العطاءات والهدايا على من قابله .

وكان فى صحبة الرشيد من ود مخلصا أن يلتقى به ، الا أن

الذى أدهشه هو وجود صديقه ابراهيم بن سيار مع الحاشية .
وكان قد جاء من الرها مع بشر بن المعتمر المعتزلى الكبير ، وسمع
عمرو أن مناظرة كلامية جرت بينه وبين هشام بن الحكم أمام
أمير المؤمنين ووزيره يحيى بن خالد البرمكى ، وظهر هو عليه
بما لفت اليه الأنظار .

كيف هذا ؟

أترى اختلط على القوم أمر العالم الحقيقى والمدعى المنتحل ،
أم وصل صديقه بقدرة منه واستطاعة ؟

انه لا يأمن أن يجاوز ذلك السؤال الى الطعن عليه بقول
أو اشارة ، فيوهم غيره بما يجب أن يوهم به نفسه ، ويومىء الى
من يشد ظهره فى مجلس أمير المؤمنين من غير أن يستحق مجالسته ،
أو التشرف بالتحدث اليه .

لقد قيل « كل مجر فى الخلاء يسر » (١٢) فهل وصل هو الى
هذه الدرجة مع أنه أخذ نفسه بألا يحسد ، وألا يغمط حق الناس
وينكر ما فيهم من فضائل ؟ ألا ما كان أصدق عمر بن الخطاب
عندما قال : « ما أحدث الله بعبد نعمة الا وجدت له عليها حاسدا ،
ولو أن امرأ كان أقوم من السهم لوجدت له غامزا » .

على أنه اذا كان حاسدا فليس شك فى أن صديقه المحسود
أحسن لأن الحسن محسود وليس يعدم ذاما على الاطلاق ،
فيا سوء ما آل اليه مصيره ! لكنه على أى حال لا يزال يستطيع أن

يعرف موضع خطوته ، وسيسير . وفي أيامه الممتلئة بالثغور — سواء تلك التي قضاها في حلب أو قنسرين أو أنطاكية أو طرسوس — أحاط بالكثير وخبر الكثير ، وأدرك أن القضية يمكن أن تصبح منافسة شريفة اختار هو حدودها من بعيد ، وليس ينبغي أن يفسح مجالاً للعداوة لأن لهذه عقلاً تسوس به نفسها فينجم قرنهما وتبدى صفحتها في أوقات الهتر ، وهذا شيء يرفضه .

وكان وراء ذلك كله عامة القوم ، يشغلونه ، ويخوضون في الموضوع على نحو آخر .. من يكون هذا الشاب البصري ؟ لقد فضح الرافضي ، لكن ألا يكون قد منح فرصة لم يمنح مثلها خصمه .. اتنا لا نريد هذا ، فحسب أمير المؤمنين أنه افتتح حصن الصفصاف ، وعقد الصلح بين الروم والمسلمين ، وغدا يكون السلام .

وذات يوم — بعد رجوع عمرو من أنطاكية — وقف يتفرج على نخاس يبيع الجوارى وحوله جمهور من المشتريين والفضوليين ، وكان يقول :

— هذه هي البضاعة الجوهر .

وصاح رجل بصوت حاد :

— أهى أم بضاعة أمير المؤمنين ؟

قالت امرأة عجوز :

— ما يقدمه أبو عبد الرحمن أثمن ولكن ينقص عليه !

وعجب عمرو ، فقد نمت الى العامة ما يجرى في منبج اذن .
فما عسى يكون الأمر في غد ؟ وصاح الرجل ذو الصوت الحاد :
— بضاعة أمير المؤمنين هي الأفضل .

قالت العجوز :

— لا تسأل عن الأفضل واشغل نفسك بالقيان يا عبد الله .
وانصرفت متعجلة فقال النخاس وهو يشير الى البتات :
— هن من حور الجنة .

وتذكر عمرو حديثه مع قمامة ، عن القيان والغلمان ، وعما يجرى
في منبج ، فقال :

— أى جنة تقصد يا رجل ؟

فأجاب النخاس وهو يتفرس في وجهه :

— جنة أنطاكية يا ابليس .

فرفع عمرو يديه الى لحيته التي تفتن في تشذيبها وقال دون
أن يفقد زمامه :

— أتريد أن تهيننى أم تهين ابليس ؟ ان كانت الأولى فوالله

لا يقدر على ذلك عبد مثلك حتى وان كنت أبيض اللون وأنا
أسوده ، فليس في السواد ما يشين ، وقد شرف به سعيد بن جبير
وأنت لا شك جاهل قدره فيما خوّف به الحجاج الثقفى ، وازدان
به بلال مؤذن رسول الله ، والمقداد بن الأسود أول من عدا به
فرسه في سبيل ربه ، وعنترة بن شداد الذى شغلت عن بطولاته
بابتياح القيان ، ولقمان الحكيم الذى كان يقول : « ثلاثة لا تعرفهم

الا عند ثلاثة : الحليم عند الغضب ، والشجاع عند الخوف ، والأخ عند حاجتك » ولست واحدا من هؤلاء ولن تكون . وإن كانت الثانية فما أعلم أن بيني وبين ابليس ما يجعلني أفزع الى الذود عنه وحماية عرضه ، وما يرضيه هو فيما أعلم أيضا أن يهب الى نجدته منك من يرى وكيله عندك ، وهو عقلك ، تحكمه على هواك وتلقى اليه أزمة أمرك ليسلك بك طريق الشوك ، ويسلمك الى الخسران .

عند ذلك صرخ الناس ، واجتمع بعضهم عليه يشدون جيبته ويدقون على يده . ومن بين الجموع برز اليه شاب حسن الهندام جميل السميت وراح يقول له :

— اسمح لي أيها الرجل ، فلعمري الحق ما في الأرض أبدع مما شهدت ، وأنا في مثل هذا ، وأبى قاض ويعدني لأن أكونه ، حكم ترضى حكومته . ولقد شهدت من براعتك ما يجعلني أقول : انه أنت ، فاذا صدق حدسي فلن تكون الا الجاحظ الذي لهج بذكرك أصدقاؤك في جامع البصرة ومريدها .
قال عمرو :

— هو أنا عمرو الجاحظ فمن تكون ؟

أجاب الشاب :

— أنا .. أنا محمد بن أحمد بن أبي دؤاد وأكنى أبا الوليد .

١٠ - في المسجد الجامع

في سنة ١٨٢ وقعت عدة أحداث كان من الممكن أن تقلب خطط عمرو الجاحظ رأسا على عقب ، ولكنه تماسك وأسرع

الى البصرة راضيا من كل الغنيمة بالاياب . فلقد بايع الرشيد لابنه عبد الله — وابن مراجل الفارسية — بالعهد بعد أن ظن الناس أنه خص به ابنه محمد الأمين . وعندما رجع عبد الرحمن ابن عبد الملك من أفسوس في غزوة الصائفة وأوقع بجيش قسطنطين وهز عرشه ، قبض عليه أبوه لأنه خاض في ولاية العهد بحديث لم يرقه ، وإن كان قد نزل بردا وسلاما على قلوب أم جعفر زبيدة وأخيها عيسى بن جعفر والفضل بن الربيع — وهم يشكلون الحزب العربي مع جماعة بنى هاشم في قصر الرشيد — فسعوا لدى عبد الملك الهاشمي بالعفو .

وكان دخول عمرو الى البصرة — وقد ترك حلب كالهارب — في الهاجرة وعرفه القوم .. العينان البارزتان ، والقامة القصيرة ، والأذنان الصغيرتان ، واللحية الدقيقة ، وكانت الجبة قاتمة والعمامة بيضاء مضطربة ، وفي القدمين نعلان غاليتان ، وأما قلبه فقد تركه للجارية التي وهبها له عبد الرحمن ولم يتمكن من اصطحابها .

إن احساسا بالمرارة يجتاح أعماقه ، ولكنه بدا منفرج الشفتين يتسلى برؤية المزدحمين ، واسراع الحمراء بقلانسهم في تيه عجيب ، وكأنهم راضون بحركة الرشيد التي تنطوى على نصر للفرس . وفي سيحان رأى قوما من البرامكة يتظاهرون بفضل يحيى بن خالد الذي حفر نهرا ، وأقام سوقا ، وشيد عمارات ، وتقدم اليه قاسم التمار وقال وهو يعاتقه :

— هأتذا يا أبا عثمان .

فصرخ عمرو قائلاً بفرح :

— أجل هاأنذا فكيف أتم ؟

أجاب قاسم :

— لا تزال نعيش ولكنى والله ذهب منى الأطييان !

قال عمرو :

— الأطييان يا رجل ؟ وأى شىء الأطييان ؟

قال :

— قوة اليدين والرجلين .

قال الجاحظ :

— أعرف أنهما كانا الشباب والقوة ، فمتى صارا هكذا ؟

أجاب :

— اليوم أو أمس لا أدري !

وضحك الصديقان ، وان اختلفا على سبب سرورهما .

فأما عمرو فكان فى نفسه من غفلات صاحبه ما وجد فيه تفريجا

وتأسية ، وأما قاسم فكان يظن أنه وقع على الشاردة . وضربا

فى الشوارع قليلا وهما يتذاكران رحلتها الأولى ، ثم ألم عمرو

ببيت أخته فى حى بنى كنانة ، وفى الطريق الى المسجد الجامع

قال قاسم :

— قل لنا الحكاية .

— أنة حكاية ؟

— حكاية أسفارك حتى لنظن أنك تكره هذا البلد .

— بل أحبه ، ولكن في السفر افادة .

— كما أفاد رجالنا .. الأصمعي والنواسي وأبو الهذيل

وابن الضحاك الخليع وابراهيم بن سيار ؟

— لا أظن ، ولكن هل عد ابراهيم من الرجال يا أبا يعقوب .

— انهم يقولون انه زهرة البصرة ، وفي دار أبي عمران يعقد

مجالس المناظرة ، ويظهر على أهل النظر والجدل .

— اذن لنعدل عن المسجد الى دار أبي عمران ، فلي شوق

الى أن ألقاه ، ولينتظرنى أبو يوسف يعقوب الى غد لإذأكره حديث

رسول الله .

— لا أرى أن نذهب الى دار أبي عمران الساعة .

— لم ؟

— لأنه في المسجد الآن يشهد ابن سيار في مجلس جدل وعدنا

به أمس ، عندما أخبرنا أن الحسينية جارية الرشيد ظهرت عليه .

— ماذا تقول .. كيف ؟

— لا أدري ، ولكن يقال انه سألها في ثمانين مسألة (١٣)

فأجابت عنها بحضرة الخليفة ، ثم سألته عن مسائل فلم يقدر على

جوابها .

وبقدر ما امتلأ صدر عمرو سرورا بعد أن سماع على انكسار

صاحبه ما سمع ، تشوّف الى لقاء الحسينية . فلا بد أن يكون قد

وصلت الى مستوى من الفكر والثقافة لم يرق اليه ابراهيم ، ومعنى ذلك أن ما يظنه كمالا في بعض الأحيان ليس كمالا ، وما يوضع موضع التقديس ليلا لا يلبث أن ينهار اذا طلع عليه النهار ، وتلك هي الحياة .

ودخلا الجامع ، وبدأ عمرو فعانق الأخفش عناقا حارا ، وأحتضن برفق شاعرا اسمه محمد بن يسير وسأله عن أبي نواس فذكر له أنه ارتحل الى بغداد ومعه أبو هفان الذي أصبح وراقه وراويته ، وتحلق حوله أصدقاؤه المسجديون ، فراح يشد على أيديهم ، وأصواتهم تملأ صحن الجامع فتمتد العيون اليه من بين الأعمدة الكثيرة التي يرتفع عليها السقف الكبير .

وثمة وجوه بيض وأخرى سود تلمع ، والقلائس تختلط بالعمائم وعشرات النماذج من الملابس السندية والشامية والعراقية والبدوية . وسعى عمرو حتى لمح أبا عمران ، وكانت نظرة واحدة منه الى حيث يجلس كافية لتكشف له عن خطورة الموضوع الذي يثار ، وعن يمينه كان أستاذه المحدث أبو يوسف يعقوب شاحيا يبدو عليه الارهاق ، وثمة شاب يقف ويقعد ، فيه مرح وعلى وجهه ذكاء .. أنه هو صديقه ابراهيم ، وقد نما وطال عوده ودقت لحيته ، وبدا أكبر سنا مما هو عليه . وكان أبو الهذيل يتطلع نحوه وهو يتبسم ، ويهز رأسه حينا بعد حين .

وتلاقت العيون ، لكن الحديث لم ينقطع ، وكان ابراهيم يقول في حماس :

— ان خبر التواتر لا يضطر ، لأن كل واحد منهم يجوز عليه الغلط والكذب ، وكذلك يجوز على جميعهم . ومن المحال أن يجتمع ممن يجوز عليه الغلط ومن يجوز عليه الكذب من لا يجوز عليه الكذب (١٤) .

وارتفع ضجيج من بين الجالسين ، في حين اتخذ عمرو مجلسه بجانب شخص عرف منه أنه اسماعيل بن غزوان أحد أصدقاء أبي عمران وعاشق إحدى جواريه ومن أشهر مرتادي مجالسه في داره ، فسأله :

— فيم يتحدثون ؟

أجاب :

— بين أبي يوسف وأبي اسحاق أشياء في الحديث ورواية الخبر .

ودار رأس عمرو . فهل وصل ابراهيم الى حيث يناقش مثل أبي يوسف القاضي ؟ حقيقة ليس للسنور كبير نفع ، بل ربما كان كثير الأذى حتى لتربى على منافع الكلب ، ولكن أنى له بهذه المعرفة الفقهية التي تدفعه الى أن يتكلم على ذلك النحو من الثقة ؟ واستمر يقول :

— وقلتم في سؤر السنور وسؤر الكلب ما قلتم ، ثم لم ترضوا به حتى أضفتموه الى نبيكم صلى الله عليه وسلم .

وعلا صوت من بين المتحلقين يقول :

— أوليس نيك يا مارق ؟

— وصاح ابن غزوان وهو يتطلع الى ابراهيم وقد سكت :

— أفكان يطعن ؟

ولم يتلق اجابة ، لأن الأمور اختلطت بعد ذلك . فقد اندفع ابراهيم نحو عمرو ، وهو يصرخ في فرح صادق :

— مرحى بالجاحظ مرحى !

وغمغم عمرو تأدبا ، الا أنه لم يستروح منه نعته اياه بالجحوظ ، لأنه وسيم طويل وأنا .. أنا الحدقي الأسود القصير من دون الناس جميعا ؟ لكنه من الحمراء ، ويستحق لذلك أن يجلد لو خلى بينى وبين ما أريد أن أفعل ، أو أمسخه سلحفاة تدب كالمختالة بدرقتها المزركشة أو أليق به « البيش موش » الفأرة التى عندهم وتغتذى بالسموم فلا تموت ويموت منه غيره . ومع ذلك فهو يقبلنى ، لا ضير ، انه تائق لى ، وحافظ لآيامنا الأولى .. ما أبعدها !

— ها قد زدت بسطة فى الجسم والعقل يا أبا اسحاق ، وسأظل أنا دونك حتى يلج الجمل سم الخياط .

وضحك بقوة ، ثم أقبل على شيوخ الحلقة فحيا وقبل الأرض بين أيديهم ، وكان أبو عمران أكثر الحضور احتفاء به .

١١ - المفاجأة

ولم يطل جلوس أبى عثمان عمرو الى أبى يوسف كثيرا ، وانما هى أشهر قليلة فارق القاضى بعدها الحياة . وعد أكثر

المتصلين بعمره هذه الوفاة منّة من الله عليه ، كأنهم استبشعوا
أن يتفرغ لما لم يهياً له على الاطلاق .

فهو لا يملك سمت المحدثين ، ولا له تقواهم وبرهم . وهو الى
المتكلمين أميل والى جدلهم أحب . ومن ناحية أخرى لا يكاد يعف ،
ويفتقد القدرة على منع لسانه من أن يلغ في دماء من يعرفه ومن
لا يعرفه ، بل قد ينتهى به الأمر الى التعريض بنفسه هو .

وعلى الرغم من أنه راح يجلس بانتظام الى أبى عبيدة معمر
ابن المثني وأبى زيد الأنصارى يتلقى عنهما اللغة والنوادر والغريب
والملاح ، والى الأخفش يأخذ عنه النحو ويسمع الى آرائه في عروض
الخليل وكتاب العين الذى وضعه ، كذلك على الرغم من حرصه
على مخالطة أبى الهذيل والاستماع اليه وهو يبدى آراءه في ذات
الله والقرآن والنفس والحواس ، وفي أساتذته من أمثال عمرو
ابن عبيد وعثمان الطويل صاحب واصل بن عطاء .. فان عمرا
لم يقلع عن مخالطة عابثى المسجدين والمربدين كالخاركي
وأبى الفضل والجماز وقاسم التمار ، وعندما كان يسأله اسماعيل
ابن غزوان عن سبب اصراره على ذلك يقول :

— ألا ترى أنك وأنت تنشط لمثل ما يقول أبو الهذيل أو الى
ما يجرى في دار صاحبنا أبى موسى تأخذ نفسك بشيء من اللهو
مع جاريته ؟ انى والله لمثلك ، ولولا أنى أجد الى التلهى سلماً
لما حببت سوء حالى الىّ ولما شوقت نفسى الى رضى وشيك ومتعة
قريبة .

وحدث في هذه الفترة أن مر بالبصرة حاجا صديقه عبد الرحمن ابن عبد الملك الهاشمي ، وكان من الممكن أن تقتصر المقابلة على التحية والاعراب عن الشوق أو قد تزيد الى ارتياد حانة وتجميش ساقية ، لولا أن أخبر بأن « جاريته » التي وهبت له في الشهر الأخير من الحمل .

فقد أصبح عمرو اذن أبا ..

هكذا بسرعة ، ودون أن يتخذ للأمر أهبة ، وبلا أية ضرورة لأن يكون له ولد وهو لا يزال عالة على عطاء الأشراف وان كسب من كده فهو النادر الذي لا يكاد يحفظ رمقا .

ان أبواب الرزق محدودة يا عبد الرحمن ، ليس أمامي فحسب وانما أمام غيري من أعلام البصرة أيضا .. أبو عبيدة نفسه ، والأخفش ، وأبو الهذيل ، حتى صاحبى ابراهيم أصبح ينظم الخرز في أسواق البصرة ، وأخبرني أمس بعد أن خلونا لأنفسنا أنه جاع حتى أكل الطين وباع قميصه ليطعم من ثمنه .

لكن أحملت الجارية منه ؟

هذه مسألة لا يمكن الزعم أن الاخبار بها حجة يلزمني بها عبد الرحمن ، فربما كذب ، بل قد يكذب غيره على النحو الذي بسطه ابراهيم في معرض حديثه عن خبر المتواتر ، وفي هذه الحال لا يمكن أن أقبل الدعوى أساسا .

وكاننا كان عبد الرحمن يقرأ أفكاره ، لأنه قال له :

— لقد أخبرتنى أنك أحسنت المضاجعة يا أبا عثمان ، فاهناً
بقطعة منك ، وسبحان البديع الخلاق .

وبوغت عمرو ولكنه قال بلا تفكير :

— يا عبد الرحمن ادع لربك في البيت الحرام أن يكون
لولدى — ان جاء — عقلى وصورة أمه ، فقد استدلت بالذى أراه
عدلا ولا يصرفنى عنه فرط تهاونك وعدم اكترائك .

قال عبد الرحمن :

آن لك أن تبني بها على الملاء !

يا للكارثة ..

ويصبح الحدقى أو الجاحظ أو عمرو الذى يدور هنا وهناك
ويرتاد المجالس مربوطا بامرأة يعرفها الناس ، ويقول بعضهم
إذا رأى بهاءها « ما أجدرها بواحد مثلى ينسيها شوهته ويحبب
اليها الفسوق » وإذا كان على تقوى مؤرق العجلى أو سفيان بن
عيينة قال « يا هذا ، مثلك فى أدبك وحسن معرفتك لا يرضيه أن
يعرضها للتهمة ويقفها موقف سوء ، فعليك اتقاء الله » ويقول
ثالث .. لكن مهما تكن الأقوال فإن جماعات أهل الحكمة يرون
أن واجبا على كل حكيم أن يحسن الارتياذ لموضع البغية ، وأن
يحدد أسباب الأمور ويمهد لعواقبها ، فانما حمدت العقلاء بحسن
التثبت فى الأوائل لأنهم يعملون عند استقبالها بحسب ما تؤول به
الحالات فى استدبارها ، ولاكن حكيما يا عبد الرحمن .

ولقد ودعه وهو يعمل فكره فيما قد تأتى به الأيام وفيما قد يروض نفسه حتى يذلها على تقبل الآتى ، لأنه سبب من أسباب بقائه . وهذا ما ينبغى أن يقدر على وجهه الصحيح ، فقيم الجزع . وله ؟ وأى انسان لا يخطر بباله أن العالم على خلاف ما يرجوه دائما ان من المأثور أن ما يشتهى عسر المنال .

١٢ - الاغراء

صحا الجاحظ ذات يوم على نبأ يقول ان كتاب « الأصول الخمسة » الذى نشره مؤخرأ أبو الهذيل فى أصول الاعتزال وعلومه لكى يعترف من يقرؤه بفضل هذه الجماعة حاملة لواء العلم والكلام فى البصرة ، يطعن فيه هشام بن الحكم الرافضى ، ويزعم أن أكثر ما فيه له هو ، وعلى هذا لا بد من طرح القضية أمام نخب العلماء فى المسجد أو فى نادى أى دار من دور آل سليمان أو آل جعفر .

وتحير عمرو ثم دفعته مقابلته لصاحبه ابراهيم النظام الى سلسلة من الشكوك والتساؤلات . وقد ذكر له صاحبه وهما معا فى الطريق الى العلافين لمقابلة أبى الهذيل فى داره أن بين المعتزلة والرافضة تأثيرا متبادلا لكثرة ما ينشب بينهما من المناظرات ، وأنه اذا كان لهشام — على سبيل المثال — كتاب فى الرد على الثنوية فسيصدر عن المعتزلة كتاب مثله يتولى هو ، أى النظام ، كتابته .

وازدادت حيرة عمرو . فقد اختير صاحبه لتلقى اليه أزمة أمور هذه الجماعة ويكتب باسمها ، وأما هو فلا يزال يبحث عن

طريقه ولا يزال يساير ويروى النوادر ويحاول الكتابة فلا يستطيع .
وان استطاع ، فلا يخرج ما يكتب عن كلمات ابن المقفع وابن عطاء
والحسن البصرى .

هيهات ..

ما يكاد ذو التكلف يخفى على أهل الغباوة ، فكيف على مثله
من المتصفحين ؟ وكأنه يعلم ما فى صدرى وان أخفته المؤانسة به
فيدعونى الى الاتصال بخاله لأثبت وأعرف طريقى ، لكنى الى
غير ما ينشده راغب ، ومن تمام شكرى لربى ولى كل نعمة الشكر
له على دعوته ، ثم يكون التمام فى الاذن بالانصراف الى المسجد
أو الى المربد .

قال ابراهيم :

— كلا يا أبا عثمان ، فلن أدعك حتى تحضر مناظرة اليوم
وسيشهدها فى فناء الدار بالعلافين كثيرون من عليّة القوم
فى بغداد والكوفة والبصرة .. ثمامة وبشر والكسائى وسهل بن
هارون وأبو نواس وأبو العتاهية وأبان اللاحقى ومسلم بن
الوليد ، وربما حضرها جعفر البرمكى ان غاب عنها الفضل
ابن الربيع الذى يقال انه اليوم فى ضيافة آل سليمان بالمربد .

قال عمرو :

— فيم هذا يا أبا اسحاق ولم أزل أبقاك الله بالموضع الذى
تعرف من جمع الأخبار والكتب والنظر فيها ؟

وعادت بعمرهم الى الورا ذاك رته ، وعرض له صدامهما القديم فأحس بالهوان . فقد مكن الله لهذا النظام من أسباب المقدرة ومهد له فى تمكين العلم مالم أنحلّه بأية حيلة ، ولا بلغته بتقرب أو بتفقه أو بتصيد كل عجب ونادر . على أنه تعالى يؤثرك بفضله دونى ، أو لعله مكنك ليلو خبرى ويختبر شكرى ويحصى أثرى ليوفينى أجرى . فليكن ذاك زادى حتى يقع أمر كان مفعولا ، والا فهل من العقل أن أغبن حظى من دينى ، وألا أجهد حتى يكون أغلب أفعالى الطاعة مع الندامة عند الاساءة ؟ وأرجو أن لا أندم .

وكانا قد دخلا العلافين مقترين من دار أبى الهذيل ، وهنا قال النظام :

— استعد يا أخى لأمر عظيمه وليوفقنا الله !

١٣ - مجلس من المجالس

لم يسفر اجتماع أبى الهذيل وابن الحكم عن شىء ذى بال ، غير أنه ترك أثرا أو آثارا فى نفس عمرو . فضلا عن احساسه الزائد بالغىظ ازاء اصرار المتناقشين على مناداته بالجاحظ خلال خوضه معهم فى الحديث الذى أكد قدرته على الجدل ، رأى أن من الضرورى ليكونوا أكثر اقتناعا بالتخلى عن أقوال حكماء الاغريق وآرائهم — وان يكن أعجب بأرسططاليس — وطرح التشديق وبعد الصوت والمعاظلة والتصعيب الى الوضوح والسهولة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال . ولو هبىء لأحد أن يبلغ من بيان لسانه ولطف مداخلة واقتداره على نفسه أن يفهم

العامة معاني الخاصة ويكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلتطف
عن الدهماء ولا تجفوا عن الأكفاء ، لأصبح البليغ التام .

لكن الجدير بالعجب في هذا كله أنه كان من بين المتكلمين
من أدركته حرفة الأدب فعلا ، الا أنه لم ير فيهم أمثل طريقة في
البلاغة من الكتاب — وكان على رأسهم : سهل بن هارون وإبراهيم
ابن المدبر وعمرو بن مسعدة — فانهم بدوا أمامه على النحو الذي
يرجوه لنفسه من الدقة والاصابة والبعد عن التوغر والسوقي .

وفي الوقت الذي أعجب فيه بسهل — وقد رآه معتدل القامة
مقبول الصورة حسن الاشارة بعيدا عن الفدامة حتى لكأن النظام
صاحبه صورة منه — أحس كراهية بالغة لأبان اللاحقي الذي
قدّم على سائر شعراء المجلس لأنه نظم ليحيى البرمكي في بغداد
« كليله ودمنة » شعرا ، وأعطاه لذلك عشرة آلاف دينار .

لا مجال للموازنة بين الرجلين ، وليس ايناسه بسهل راجعا
إلى قدم معرفته به — فقد التقى به من قبل في رحلة الجنوب —
وانما القضية أن أبانا ينتحل الأدب والشعر والعلم ويستطيع غيره
— وليكن هو نفسه — أن ينظم كل كنوز العربية ويأخذ ألفا فقط
أو حتى ألف درهم !

لكن الى أين يا أبا عثمان ؟ فأننا لم أر ظالما أشبه بمظلوم من
حاسد نعمة ، فان كربى دائم . وما أريد هذا ، لأنتى أعلم أن المقصر
في صناعة العلم هو الذي ينتقص كل ما يرد عليه من منظوم وغير
منظوم ، ولكأن هذا الشاعر الكوفي الآخر — مسلم بن الوليد —

يريدنى وهو يقول بعد أن أفضت الجلسة الى الشعر « يخيّل الى نوكى الشعراء أنهم لا يقضى لهم بجودة الشعر الا بهجائى والطعن فى شعرى ولسان يهيجى به عرضى » لكننى لم أتنقص من نظمه وانما أسأل لماذا لم تتح لى هذه الفرصة ، هل لأنى عربى وهو من الحمراء ؟

انه منذ استولى آل برمك على مقاليد الحكم فى بغداد وكل شىء يخرج من صعب الى أصعب ، برغم الهدوء الذى يسود جميع ربوع البلاد . فالسلالات الكبيرة من الأموية والعلوية والخوارج قاتلت الى أن أنهك القتال قواها ، وها هم أولاء حكام بغداد — وفيهم الآزدمردية — قد تفننوا فى ابتناء القصور واقتناء الجواهر ، ويعاقرون بنت الحان فى دعة واسترخاء ، ويخرجون الى القنص ما لم يجدوا شىئا يفعلونه وقد زهدوا فى الاستماع الى أمثال أبى نواس وأبى العتاهية ومسلم وأبان .

وبمثل صعوبة الموقف صعبت حياتى ، حتى وان طلبنى للمسامرة والمذاكرة عبد الملك فى الثغور أو محمد الهاشمى ومويس هنا ، وينتهى الأمر بأن أطالب بتهيئة نفسى لأكون من المعتزلة وأقرأ على النظام — كما اقترح أبو الهذيل بخبث وأيده بشر بن المعتمر الذى يغمزه ويلمزه من حين الى حين — كتب الاعتزال .

هم يعيشون هذه الحياة الناعمة بفضل الأموال التى تعترض من العامة بغيا وظلما ، وبفضل دروس العلم التى تستقى من

« خدای نامه » و « آیین نامه » والأدیین الصغیر والكبیر اللذین كتبهما ابن المقفع كما كتب كليلة ودمنة .

هم يتبارون تباريا عنيفا في اجتذاب النابهين من غیر العرب الأصلاء ، وإذا كان قد قبل بينهم واحد كالأصمعی — وهو العربی القح — فلميزات خاصة أو لظروف شاذة ، فمن أكون أنا ، مع أن فی وسعی أن أبتكر لكل بلاط شیئا طریفا یناسب ظروفه وطبیعته ؟ أنا قادر ، وهم یعلمون أنى قادر ، الا أنهم ینصرفون عنى عامدین .

١٤ - ساعة لهو

كان عمرو یحلق بأفكاره فوق منبج محاولا أن یقدر للمستقبل أمورا وأمورا عندما دخل علیه أبو نواس بصحبة محمد بن منذر ، فاستقبلهما باشا وراح یقول :

— فاسقان معا فی بیتی !

قال ابن منذر :

— ألى یقال هذا الكلام ؟

قال :

— مادمت عالقا بعبد الوهاب الثقفى .

وقال أبو نواس :

— وأنا .

قال عمرو :

— ظريف ولكن ..

قال أبو نواس :

— لست كالجماز تنال منه يا أبا عثمان !

قال عمرو :

— هذا العيار السليط تشط لمثله يا ابن هانيء ؟

فقال أبو نواس :

— بل أنشط للأعلام وأكسفهم ، وقد بدأت باللاحق ، أترى

يرضيك أن تسمع حكايته ؟

قال عمرو :

— اتركه في ركوب الفواحش واتباب الحانات ومنادمة

السفلة والسوقة .

فقال أبو نواس :

— عندما قصدت بغداد وعرضت بضاعتي على آل برمك

نفس عليّ أبان لسموي وشرف قولي ، وعندما جالسته خرجت

من مجلسه بنونيتي التي رميته فيها بالزندقة ^(١٦) فراح يدس لي

عند جعفر بن يحيى ، وبخاصة بعد أن عرض عليّ جعفر كلبة

لأسميها له فقلت « قد سميتها أم أبان » . ولما قدم الفضل من

خراسان سأله جعفر أن يجعل أبانا على عطاء الشعراء وتمييز

ما يهناً به من الشعر ، ففعل ، وأعطاهم على مراتبهم وطبقاتهم .

فلما جئت لقبض جائزتي أعطاني درهمين ، فرفعت يدي وصفعته

قائلاً « سارق غلة أمه ، قد بلغني أن أمك كسبت عشرة دراهم

« ففختها » فضحك الفضل وقال لجعفر : « مر أبانا ليصالحه »
ومنذ ذاك وهو يهش في وجهي ويمتدح قولي حتى ما فيه من
عبارات المتكلمين التي سألت توضيحها .

وهنا قال ابن منذر :

— هذه شهادة طيبة ، فهم يقولون : ان أبانا خير حكم ، وهو
يحق الأرض ، من كثير من رجالات بغداد .

قال عمرو :

— هذا اعتقادك ، ولا أدري ما أقول لك فيه ، ولكنه جعل
قرة عين آل برمك ، وهو غير جدير .

قال أبو نواس :

— ليكن ما شاء وشاؤا أن يكون ، بيد أنى أروى لأبى عثمان
من شعري ما يحفل بالفاظ المتكلمين عساه يحفظه ويشته في
أضاييره ، سأسمعكما في الغزل ، ولكن لا حاجة الى هذا الآن
بقدر حاجتنا الى أن ندلج الى الطوفان فان بها حانة رفاة ، وهي
غير بعيدة من قصر أنس بن مالك ، ولم أر مثلها قط في نظافتها
وطيبها وحسن شرايها ، وأنا أشتهى أن أسكر وأقيم بها أياما
بعيدا عن العلم والسياسة وتديير من يدبر .

قال عمرو :

— أن نمضى معك الى الموضع الذي وصفت فلا اعتراض ،
هو أنك تريد البعد عن السياسة والعلم فشيء من خاصتك ، لكن
هاذا تعنى بتديير من يدبر ؟

قال أبو نواس :

— يا عم للناس تأس وعادات وتقليد للآباء والكبراء ، لكن
لم يعلمونا أن نخوض في أمر الدولة بما يخوضون ، فلنبتعد !

ثم خرجوا ، وأشرفوا بعد حين على البطائح ليروا أشجارا
وكروما لم يروا مثلها قط نزهة وحسنا . وكانت أنهار البصرة
تفيض هنا وهناك ، وتغور في الأرض ، فتنبت الأعشاب الخضراء
والصفر ، وتتلأ العيون بهاء . وما وصلوا الى حانة رفاة حتى
قوبلوا بعاصفة من الترحيب ، فثم الجمار ودادود بن رزين
الواسطي ، وعمر الوراق والحسين الخليل ومسلم بن الوليد .
وانقبض عمرو قليلا ، غير أنه لم يلبث أن اندمج وانبسط . وقد
بدأ رزين — وهو راوية لشعر بشار — فأشدد ما يحفظ على
الأقداح الدائرة ، فقال الوراق :

— ألا يذكركم اجتماعكم هذا بشيء ؟

فقال مسلم :

— بالجنة التي وعد الله بها المتقين .

فقال عمرو :

— بعيدة والله عنكم !

فقال الوراق :

— ما عנית هذا ؟

قال أبو نواس :

— بغارة الكرخ التى قلت فيها « يا ناظرا فى الدين ما الأمر » .
فقال الوراق :

— بل بزيارتنا لمنزل عنان جارية الناطقى ، ولم يكن معنا
أبو عثمان وكان فضل الرقاشى وابن الخياط ، هنالك تناشدك
الى وقت الظهر ، فلما كان موعد الانصراف سأل بعضنا « أين
نحن العشية » فكل قال « عندى » واحتكمنا بالشعر الى عنان .
قال داود :

— أنا قلت « قوموا الى قصف لهو » ..
قال أبو نواس :

— لا حاجة بنا الى هذا ، ولنقل فى اجتماعنا اليوم شيئا
جديدا ، ولنتراض بحكم الجاحظ فيكم .

١٥ - مشروع

ولقد نهيا الطريق الى دار محمد بن سليمان بن على ، ولدى
الباب لقيهما عبد أسلمهما الى قهرمان عدل بهما الى ردهة مفروشة
الصحن ، ملبسة الحيطان بالوشى الدقيق . ولم يمض الا القليل
حتى طالعهما سيد الدار مهللا ، وأنشأ يقول فى مزح يشبه الجد :
— قد طالما طلبتك يا أبا عثمان فلم تأت الا بدعوة ابن الربيع ،
أخذك منا الكلام ، وزندقة الحمراء .
وأشار الى الرسول فانصرف ، بينما قال عمرو ، وقد داخله
القلق :

— حاشا يا مولاي ولكن ..

قال الأمير :

— فأنت اذن كاره ؟

قال الجاحظ :

— بل أعمل بما قال رسول الله : زر غبا .

وفي هذه اللحظة دخل الفضل بن الربيع فحيا ، ونودى على « الغلام » فدخل مولى أسود عليه ثياب موشية وعمامة صفراء فقال الأمير :

— ادع بالمائدة .

فمد سباط وضع عليه الخبز ، وجدى مشوى وبقول ، ولم يزل الخدم يضعون ويرفعون ، وعمرؤ يتتم دهشة وهو يأكل :

— يا للحداثة وما تصنع بأهلها !

وقال الفضل :

— جمعتنا يا أبا عثمان أكلة عربية وبعدها ..

وسكت ريثما يضع الخدم الحلوى والنبيد والنقل والريحان ، وما انتهوا حتى دخل شاب عليه طيلسان أصفر وسراويل وشى مسدول ، وفي يده عود خيزران ملون . فقبل أيدي الجماعة ، واتخذ جلسته على مبعدة وهو يمد أصابعه يلمس بها الأوتار . ولم تكد الأنغام تتدافع كسلى ناعمة حتى دخلت جارية راحت تتخطر ، وقد انفلتت من تحت قلنسوتها خصلات من شعرها الى

قبائها المذهب ، وتحيط خصرها منطقة بزئار أخضر غرقت في لحمها ،
فما تكاد تبين الا معاليقها ، وفي قدميها نعل مدبجة الدروز .

ها أنت ذا يا أبا عثمان ترى جاريتك .. أم ولدك ، بل ربما كانت
جاريتي أكثر جمالا ، لكن أين هي ؟ وماذا فعل الله بها ؟ لابد أن
تكون وضعت ، واتي لأتتظر البريد كل يوم بشيء ولا يأتي ،
أفتكون ماتت أو مات ولدي ؟

— ألا قلت شيئا يا أبا عثمان .

قال عمرو وقد اضطرب وان كانت الأريحية تهزه :

— والله انها لمعان لا يحسن كشفها الا شعراء البلد ، وأين
أنا من ابن هانيء والخليع والرقاشي وابن مناذر ونحوهم ؟
قال الفضل بمرارة :

— هم بين أيدي آل برمك ، فكيف لا تتزلون الميدان ؟
وأشار ابن سليمان الى الراقصة والعازف فانصرفا ، وأغلق
عليهما الباب ، فقال عمرو :
— لا نملك الأداة .

قال الفضل :

— ويسلب حق أمير المؤمنين ؟

قال عمرو :

— ان كان على أن أفعل شيئا فعلته ، فماذا ترى ؟

قال الفضل :

— اجمع قلوب العرب حولنا ما دام يحيى وأولاده استأثروا
بالحمراء ، وبمن هواه مع الحمراء ، أتدرى ما كان ؟
فهز عمرو رأسه ، فاستطرد الفضل يقول :

— على بن حمزة الكسائي يؤدب محمد الأمين ، واليزيدى
يؤدب أخاه عبد الله ، وسهل بن هارون يلوذ بجعفر البرمكى ،
وسلم الخاسر يقصد الفضل أخاه الكبير ، والشيباني القاضى
صاحب أبى حنيفة يدعو للبرامكة ، ومثله أبو عبد الرحمن
الهاشمى أمير الثغور .. كل الرجال يجتمعون مع خصومنا
يا أبا عثمان ، وتقعّد نحن للفرجة ، والله لن تقوم لنا قائمة حتى
يكون عندنا مثل ما عندهم . وها نحن أولاء نبدأ بالأصمعى
ويونس بن حبيب ، وحدثنى عنك عبد الرحمن بن عبد الملك
ابن صالح الهاشمى .

وعلى هذا النحو استمر الفضل يتكلم ، حتى اذا قال له « ابدأ
بالمسجدين ثم اكتب اذا أردت الكتابة ، وستمد بالمال ما طلبته » .
انفجرت أساريره ، فهل يا ترى جاءه الفرج وانتهت بذلك
— ولو مؤقتا — مشكلة طالما أعيته الحيل فى حلها ؟

١٦ - الكتاب الأول

مضى كل شئ بعد ذلك على ما قدّر .. بسرعة ، وباحكام ،
وبصورة جعلته يبدو مغامرا محظوظا ، وان يكن نكب بالابن
الذى جاء وجاءت به أمه الى البصرة !

واذا نحن تابعناه وصدقناه فيما يقوله عن نفسه ، كان علينا أن نعترف له بأنه لم يصبح مغامرا عن حاجة الى المال فحسب ، بل كذلك عن طبيعة مزاجه وتكوينه .. ذلك المزاج الذى بذرت فيه موهبة الفنان أروع البذور ، فكان الثمر متنوعا مختلف الألوان .

وهو معنى على الدوام — ربما لهذا السبب — بايجاد تبرير فلسفى لاتجاهه فى الحياة ، ما دام لا يؤذى أحدا ولا يفتات على الحقيقة « الكلية » فليكن ما يكون . وقد عرضت عليه مرات فرص الالتحاق بأى بلاط ، ولكن ما من اغراء استطاع أن يستدرجه الى دفء الوظيفة وأمن الاستقرار .

ولا بأس بعد ذلك من أن يؤلف الكتب ويعتق ورقها ثم يبيعها منسوبة الى الأقدمين . وطلب اليه مرة أن يتكلم عن منطق أرسطو ، فزعم أن لديه كتابا له خصه به أحد سكان الأبله . وسئل عن النبر فى اللاتينية والفارسية فقال فيه مالم يستطع أحد أن يصدقه فيه أو يكذبه . وعرضت أمامه مشكلة موسيقية فأفتى فيها ، وبيّن أصولها عند العرب وغير العرب على حد سواء .

وكانوا يسألونه عن اللصوص والشرطار فيجيب ، وعن النساء والمعلمين فلا يتوقف ، وعن العقائد والملل فيفلسف ويشعب القول ويفرّع ، وعن السياسة والدين فلا يتردد ، وعن الرقص والمبارزة ومهارشة الديوك وركوب الخيل ولعب الشطرنج وطسم وجديس وعاد وثمرود فيعيد ويزيد ولا يكل أو يمل .

وفي كل مرة كان يكشف بحسن طالعهِ وذكائه ولباقته نور غيره ، بل ربما كان يظهر على أمثال أبي عبيدة من الشعوبيين بصورة تضعه في الجوزاء . وباختصار ظهر في السنوات الأربع التي أصبح فيها « أبا عثمان » أن في استطاعته أن يكون أستاذا في أى علم بسهولة مطلقة ، لما أوتيهِ من توقد في الذهن وسرعة في التمثل . وقد رَوَّع النظام في جلساته التي كانت تعقد في دار أبي عمران .

وبدا في تلك الأثناء سعيدا . فالمال بين يديه ، وبيوت آل سليمان وآل جعفر مفتوحة أمامه ، والكوفة تدعوه ، ويونس ابن حبيب يعلن ليلة وفاته أنه وحيد عصره ، والحمراء تحسب له ألف حساب . الا أن شيئا واحدا شوه دنياه المقبلة عليه ، وهو ولده الذي تمنى أن يكون في جمال أمه وكمال عقله .. لقد كان يقبحه هو وبجملها ! ولما مات شيعه بدمعتين ، ولم يشفق على أمه التي أعادها الى الثغور بألف لعنة .

لقد علمته التجربة أن « الزوجة » عبء . وان تكن « المرأة » مرغوبا فيها أبدا .

واذا كانت المرأة تصد عنه لشوهِته ، فليس ما يمنع من أن تقبل عليه ما دام يملك الدرهم والدينار . وكل المعلومات الأساسية في أى ميدان من ميادين « الأسرة » تقفه على هذه الحقيقة ، فلماذا العبء الذي يحمله على كاهله مدى حياته ؟

ومن ذلك ما حدث في بغداد قبل نكبة البرامكة ، اذ قال له أبو الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد البصرى — الذي قابله

لأول مرة في أنطاكية وزاره في البصرة مرات — يقول رسول الله
« مسكين مسكين رجل لا زوجة له ، مسكينة مسكينة امرأة
لا بعل لها » فلم يتردد في أن يؤكد لأبى الوليد أن الزوجة اذا
صاحبت زوجها شيبت رأسه وسهكت ريعه وسودت لونه وكثرت
بوله ، فضلا عن أن الزوجات — عادة — مصايد ابليس وجبائل
الشيطان ، يتعبن الغنى ، ويكلفن الفقير ما لا يجد . وهذا كله
لا يلزم أحدا بالزواج ، وان يكن الحديث الشريف لا يحمل معنى
الأمر ، ورب ضارة نافعة على أى حال !

ومرة ثانية قيل له « بم تملأ أيامك اذا مللت القراءة ؟ » قال :
— بالكتابة .. وقد رأيت أن أجمع من نواذر النساء والمعلمين
ما يروع ويعجب .

وشوهد بعد ذلك متأبطا كتابا ذكر أنه فيمن سمي « عمرا »
مثله من الأدباء ، ولم يعثر بين من حمل هذا الاسم على معلم
واحد ، وهذا من حسن الطالع من غير شك !

١٧ - هذا القبيح الوسيم

اصطحب عمرو صديقه قطربا — وكان من رجال النحو — بعد
أن ودّعا الأخفش أستاذهما على موعد في المسجد غدا ، وقصدا
به الى دار أبى عمران لملاقاة النظام . لقد شغف قطرب بمجالس
هذا المتكلم ، ولعل هذا ما قرّبه الى الجاحظ ، لأن هذا لم يكن
يميل الجلوس اليه . وعلى أنهما عند وصولهما علما أن النظام
اضطر الى السفر الى بغداد بناء على دعوة من الرشيد توسط له

هيا ثمامة بن أشرس ، وقيل : ان جعفر بن يحيى البرمكى أراد
فى الوقت نفسه أن يختبره فى مسائل عرضت له فى أحد كتب
أرسططاليس .

ولقد وجد عمرو نفسه بعد سفر صديقه — الذى بدأ يحتل
فى نفسه مكان الأستاذ — يتولى عنه شرح آرائه ، وان يكن
فى بعض الأحيان يحاول التعليق عليها . وعندما نبهه الى خطأ هذا
الأخفش — وكان مجادلا يحسن الخوض فى مسائل الكلام —
ذكر له أن صديقه فى الواقع أكثر أهل الأرض تنقلا ، وأسرعهم
اعتقادا ، وأقلهم على ما اجتنبى ثباتا .

يجب أن تعلم ويعلم غيرك أنى لا أتقصه ، ولكننى أقرر واقعا .
أنه فرضى عروضى — وأنا أكره العروض — وحاسب ومنجم
ونساب وحافظ للقرآن الكريم ، ويعرف تفسيره ويعالج الكيمياء
ويروى كلام الأوائل ويقول الشعر اذا أرادہ ويستطيع مناقشتك
فى النحو . بيد أنه يسأم طول الروية فتجىء كلماته لا كما جاءت
كلمات واصل فى « الأصول الخمسة » محكمة واضحة . فما معنى
نقوله : ان القرآن حق وليس تأليفه بحجة ، وانه تنزيل وليس
ببرهان (١٧) . وما معنى أن الارادة لا تضاف الى الله على
الحقيقة ، واذا وصف بها شرعا فى أفعاله فالمعنى أنه خالقها ومنشئها
على حسب ما علم (١٨) وهل يقبل العامة أن يقول لهم « لا جزء
الا وله جزء ، ولا بعض الا وله بعض ، ولا نصف الا وله نصف »
ليقولوا : أبدعت والله وأحسنتم ؟

ان كتبه فى حاجة الى بيان واستدراك ، كالكتب التى تكتبها
أنت أيها الأجلع الذى لا تنطق شفتاك أبداً ، والفارق بينكما أنه
يقول : ان كتبه لله ، دعى أسألك فسنقول هذا تماماً .

— أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟
وما بالناس نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ؟ وما بالك تقدم بعض
العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟
قال :

— أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله ، وليست هى من كتب
الدين . ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى إليه قلت حاجة
الناس إلىّ فيها ، وانما قد كسبت فى هذا التديير ، اذ كنت الى
التكسب ذهبت . ولكن ما بال النظام وأصحابه يكتبون الكتب
لله بزعمهم ، ثم يأخذ مثلى فى موافقته وحسن نظره وشدة عنايته ،
ولا يفهم أكثرها !

ومر فى هذه الأثناء الجمار ، فأعجبه المنظر .. الأستاذ والتلميذ
قبيح وأقبح منه ، وكلاهما محب للآخر لدمايته . ولعلهما يشفقان
بعضهما على بعض ، ولكن الجمار يسخر قائلاً :

— وافق شنّ طبقة .

فيقول الجاحظ :

— كأنك استوعبت علوم عصرك ، فرحت تروى الأمثال ،
ألا هل اكتفيت فقعدت الى قحف الخنزير تأكل فيه قىء الكلاب (١٩) .

فعدل عنه وهو يقول :

— والله لأرمينك أيها الأسود بأبى هفان .

وهل يظن هذا البخيل المتطفل الشويعر ، هاتك عرض أمه
أنى ألين له ولغيره ، والمرء بعلمه وعقله وليس بحسنه وبياض لونه ؟
ألم يكن عبد الله بن عباس أدلم ، وكان آل أبى طالب سودا وأدما
وقال رسول الله « بعثت الى الأحمر والأسود » وقد علم أننا نحن
العرب لسنا حمرا ولا بيضا فقد غانا بقوله الأسود ؟

وليأت بأبى هفان . فليس فى وسعه أن يكون أثقل على من
غيره من الثقلاء ، ولكنى عنه منصرف الى ما أخذت به نفسى من
شرح ابراهيم ، الا اذا وقعت الواقعة فتكون نهايتى ونهايته ،
والخير فيما يفعله الله .

١٨ - عن الشعر

لو يمسح الخنزير مسحا ثانيا ما كان الا دون قبح الجاحظ
رجل ينوب عن الجحيم بوجهه وهو القذى فى عين كل ملاحظ

وقيل له ان الناظم هو أحمد بن سلامة الكتبى ، فمر عليه
بدكانه وصاح « لافض فوك » وأسرع على حمارة الى أبى هفان
قاصدا اللهو معه وسؤاله عما أشيع من حبس الرشيد لأبى نواس
فى المطبق ، فقابله على الباب غلام عجمى فقال له :

— من أنت ؟

أجاب :

— الجاحظ !

فدخل الغلام الى أبي هفان ، وهو يصيح قائلاً :

— الجاحد على الباب .

وسمعه فضحك ، ولما عاد اليه بعد قليل ، ليعيد سؤاله عن اسمه قال له :

— قل له الحدقي !

فدخل الغلام وهو يصيح « الحلقي » فاندفع خلفه قائلاً :

— رددنا الى الأول أيها الغلام !

وكان في المنزل جماعة من أهل العلم والنادرة فيهم أبو البصير الشاعر ، وأبو العيناء الراوية الأعمى ، فراحوا يخوضون فيه ضروب من الحديث جعلتهم يتعرضون لسيوухهم ، ثم تطرق الحديث الى السياسة . وكعادة الجاحظ في حملته على الشعوية والتنديد بما تفعله هذه الأيام ، قال :

— على فضل بعض بنى الحمراء ففيهم من ضباً وأساء ، وبالأمس قرأت صفحات من الامامة فرأيت جدلاً عقيماً ، تماماً مثل ما رأيت من أبي عبيدة ، وهو ينقد شعر العرب وحياتهم .

قال أحد الجالسين :

— ان شئت فدع الامامة الى غيرها .

قال أبو البصير :

— فليكن الشعر .

قال أبو هفان :

— فهل أنشدكم من شعر بشار وابن هانيء ؟

قال أبو العيناء :

— بل ليقل الجاحظ ماذا يعيب نقد أبي عبيدة وهو شيخ
البصرة وراويها وعالمها ، ولو مكنوه لقرأ عليهم أخبار الأولين
والآخرين ؟

قال الجاحظ :

— ما دام أبو عبيدة لا ينقل من الشعر الا ما اتصل بالأخبار
وتعلق بالأيام فلا خير فيه ، والدليل أنه قدّم قصيدة ما في وصف
المطر على قصيدة أوس بن حجر المشهورة . هل أقرأها ؟ انى والله
أتعجب من هذا الحكم .

وخرج من فوره ، وانه على ظهر حماره يخب اذا المنادى يعلن
وحوله الصبية والنساء والرجال المتسكعون :

— يا أهل الحلة ، يا أهل الحلة ، قضى أمير المؤمنين على
آل برمك ، وصادر دورهم !

١٩ - على مدار الأيام

ملأت الشائعات البصرة بعد ذلك عن سبب النكبة ، فمن قائل :
لان السندی بن شاهك صاحب الشرطة الذى تولى عملية الايقاع
بالبرامكة أطلع الرشيد على كتاب بخاتم جعفر بن يحيى الى أخيه
هوسى يسأله فيه التوجه الى الحجاز لاصطحاب يحيى العلوى

الى خراسان والدعوة له فيها ، وقائل يزعم أن الفضل بن الربيع
دس الأصمعي عند أمير المؤمنين حتى غيرَه على البرامكة ببيانه
الناصع وسحر حديثه ، وقائل : يؤكد أن الفضل هذا أوغر صدر
الرشيد على كثير من بنى هاشم — وعلى رأسهم أبو عبد الرحمن
عبد الملك بن صالح أمير الثغور — فقبض عليهم ، وقائل : ان
أمير المؤمنين طلب من يحيى البرمكي ألف ألف درهم من ستة
آلاف ألف وردت من فارس فاعتذر كما اعتذر ابنه جعفر عن عدم
مده بعشرة آلاف ، وقائل : بل السبب هو حب نشأ بين العباسية
أخت الرشيد وجعفر ، وهكذا ..

وان هي الا أساييع قلائل حتى وردت الأخبار الحقيقية ، لكن
الناس أبوا الا أن يخوضوا في الأمر على النحو الذي يحبون ،
الا أن شيئاً واحداً نزل على أبي عثمان الجاحظ نزول الصاعقة ،
اذ صح ما روى : أن الرشيد قبض على أبي عبد الرحمن الهاشمي
أمير الثغور ، وأودعه سجن الفضل بن الربيع وزيره .

وروى العائدون من بغداد أن ابن الهاشمي وكاتبه قمامة فرّاً
الى أمير المؤمنين ، ووشيا بالرجل مدعين أنه سعى للخلافة تطبيقاً
لمخطط برمكي ينفذ بعد فشل مشروع تولية يحيى العلوي ، وقد
جاء الرشيد بأبي عبد الرحمن فحبسه .

وبكى عمرو ، فقد كان الهاشمي شهما ، ولا يمكن أن يكون
قد دبر أمراً ضد أمير المؤمنين ، على رغم ما كان بينه وبين الفضل
البرمكي . غير أن الشيء الذي لا أصدقه هو وشاية عبد الرحمن

بأبيه ، الا أن يكون هناك شيء ما ، فما هو ؟ ألا ما أشق ما تدل
عليه الآية الكريمة « ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم
فاحذروهم » ألى هذا الحد يصل أمر هذه الأمة ؟ وماذا أفعل ،
وفيم بقائى بين قوم لا يجمع بينهم سوى البغض والكراهية
والحق ؟!

وفى هذه الأثناء وصلت دعوة من ثمامة بن أشرس ، فخاف .
وجاءته رسالة أخرى من صديقه ابراهيم النظام ، فاشتد خوفه .
ان البصرة ظلت له حتى اليوم حصن أمان وخير موئل ، ولما رأى
أبا عبيدة يشد رحاله الى قصر الخلد — محاطا بتوصيات اسحاق
الموصلى — رجا أن لا يعود .

كان ذلك عام ثمان وثمانين ومائة على وجه التحديد ، أى فى
السنة التى تلت النكبة ، وقدم بدلا منه الأصمعى يحكى ويحكى .
فاذا دار السلام دار عذاب ، واذا الأخ فيها عين على أخيه والابن
يسعى بأهله ، وكل يقول : « رضينا بالله حكما وبأمر المؤمنين
حاكما » .

وعقد الأصمعى حلقة فى المسجد . فتحلق حوله كثيرون منهم
الزياشى والتوزى وأبو عبيد القاسم وابن شبّة والجمحى
والترمذى ، ووجد الجاحظ نفسه يقصده ويسمع اليه . انه عذب
الحديث حقيقة ، ولا بد أن يكون قد لعب لعبة ما — عند
الرشيد — فى القضاء على البرامكة الذين كان يكرههم تعصبا
للعرب . هل أسأله ؟ ولكنه متجهم مقطب دائما ، وبعيظنى منه

هزأه وركوبه ذلك الحمار الأعرج الذى لا يليق برجل صاحب
أمير المؤمنين سنوات عدة فوسع عليه وأغناه .

ويمر عام وعام ، فإذا ما كان يعيبه على الأصمعى يقع هو فيه .
وتثور فى وجهه من جديد مشكلة المال فيحاول الكتابة ، ولكن
كتبه لا تنفق ، فى حين تجد كتب النظام صديقه رواجاً أى رواج .
فيعود من جديد الى ما أخذ به نفسه قبل من تأليف بعض الكتب
ونظماً للأولين . على أنه وهو يخطط للرد على الشعوية لم يجد
مفراً من اعلان اغتباطه بوفاة يحيى البرمكى عام ١٩٠ ، ثم ود
لو سافر الى الرقة — مع الأصمعى — ليصل حبله بحبل الخليفة .
وقد أبت الظروف الا أن تجعله رهين بلده ، يرضد للشعوية التى
عادت فشمّرت عن ساعد الجد باتساع نفوذ أسرة بنى سهل
المجوسية .

ثم يموت الفضل بن يحيى ، ويعقبه الرشيد ، ويتولى الأمين
الخليفة . فإذا كل شيء يبدو كما لو كانت شمس العرب فى السمت .
ويروح الجاحظ يغزو بآرائه جميع منتديات البصرة والكوفة دون
أن يهتم كثيراً بسلطان بنى سهل الذى كان يتسع شيئاً فشيئاً فى
بغداد . وطبق مبدأ « عش كما تريد » على نحو أطلقه من كل
الحدود .

فهو عربى أولاً ، ولا عليه بعد ذلك أن يتسرى من الجوارى
والفتيات — ما وجد المال — بما تطرب به نفسه . ولا بأس
إذا رأس عصابات المجان ما كان ذلك على مبعدة من أعين الرقباء .

ولا يردده شيء عن ارتياد المواخير ما دامت لا تؤلب عليه أحدا من المعتزلة الذين أصبح علما بينهم .

والغريب أنه وجد من أهل بلده من راح يدافع عنه هجوم خصومه الذين كانوا من قوة اللسن ، واضطغان الحفيظة بحيث هزوه أكثر من مرة ، وصرح محبوه بأنه كان يأخذ من اللهو أسمعته ، ومن النعيم أبعدته عن الائم .

على أنه — وهذا أغرب — كان يرى أن ارضاء العامة ومصانعة بعضهم مصانعته للكثير من الأشراف والأغنياء يحفظه من كل ما يعصف به . وتطبيقا لهذا المبدأ الثاني ، وهو « أرض العامة تأمن شرهم » وقد اقتضاه التوسع في مخالطة الأفاقين والمغامرين والشطار نجح في توطيد مركزه ، وأفاد من ناحية أخرى تعلم لهجاتهم — وكانت به خاصة اتقان اللغات بأقصر زمن — وتشرب عاداتهم مدعيا أنهم الأصدقاء الحميمون .

ولم ينكر عمرو في يوم من الأيام أن حياته تلك بعيدة من الأكدار ، بل انه على العكس جاهر بها فيما بعد عندما كتب كتبه الضخمة . ولم يشأ أن يخدع أحدا بمثل قوله « اللهم انا نعوذ بك من فتنة القول ، كما نعوذ بك من فتنة العمل » لأنه كان يتبع ذلك بكثير من الاعترافات التي تجعل استعاذته من فتنة القول والعمل مجرد شعار لا طائل وراءه .

وإذا كان قد اعتاد بعد ذلك أن يستعيز من التكلف لما لا يحسن ، فلان هذا يشكل في الحقيقة مبدأه الثالث ، وهو

« الصراحة أولا » . وفي حدود تلك الصراحة يمكن أن يقول أى شيء عن أى شيء ، غير أنه يجعل آراءه تحفظا واحدا هو ألا يظنه أحد شاطرا من الشطار أو نصابا أو مخادعا أو أحد أقطاب الجتهجاه الذين كانوا يذهبون الى نصرة الكذب والدفاع عنه !

وعلى ذلك فليقل آراءه الخطيرة فى الشعوية والامامة ، كما يقول آراءه فى جميع أصناف الناس والأدباء والعلماء دون خشية وبلا اعتبار لما يثيره كلامه من ضغينة أو حسد .

فالشعوية تطعن على العرب المخصرة فى خطبها وكذلك القنا والقضيبي والاتكاء على القوس ، لماذا ؟ وهل يعيب العرب أن كانوا رعاة ابل وغنم ، وكانت رماحهم من مرآن ، وأسننتهم من قرون ؟ وهل نسى الشعوية أنهم أهل كفر وعبيد نار ، وخضعوا للعرب ، ولبسوا الخفاف ، ولم يكونوا أهل بديهة ؟

والامامة لا تصلح الا بالنص والتعيين ظاهرا مكشوبا ، وقد يكون أهلا لها — كما يقول سائر المعتزلة — كل من كان قائما بالكتاب والسنة . لكن لا يستحقها الا الأفضل ، ولا يجوز صرفها الى المفضول .

والعلمون والنساء خير رأى فيهم قول بعض الحكماء : لا تستشيروا معلما ولا راعى غنم ولا كثير القعود مع النساء ، كما لا تدع أم صبيك تضربه لأنه أعقل منها وان كانت أسن منه !

والأصمعى الذى رماه بالقدرية ، وجعل يقول له وهو يسبك

نعله المخصوفة بالحديد : « نعم قناع القدرى » بخيل ويأخذ
بالمثانية .

والنظام — صديقه وأستاذه معا — واش لا يحفظ السر ، مع
أنه قال فيه :

حبى لعمرى جوهر ثابت وحبى لى عرض زائل
به جهاتى الست مشغولة وهو الى غيرى بها مائل
وأما أبو عمران الذى فتح له بيته وأعطاه من ماله فهو بخيل ،
وان يكن هو والكذب لا يأخذان فى طريق ، ولم يكن عليه فى
الصدق مئونة لا يثاره له ، حتى كان يستوى عنده ما يضر وما ينفع .
الى غير ذلك من الأقوال التى تجاوز الأعلام الى المعالم ،
وتصل التجربة بالأخلاق حتى ليصبح البكاء عنده صالحا للطبائع
اذا وافق الموضع ولم يجاوز المقدار ، وخير كلام الاماء ما كان لحنا ،
وكل عزيز تحت القدرة ذليل .

٢٠ - الى المأمون

كان فى البصرة علويون ، ورغم أنهم لم يكونوا من الكثرة
بحيث يشكلون خطرا كبيرا على الوضع العام للبلد — الذى توزعه
سلطان السنة والاعتزال — فقد ألحوا على قضية الامامة الحاحا
كاد يودى بالدولة منتهزين فرصة الصراع الذى نشب بين الأمين
وأخيه المأمون .

وراح الجاحظ — الذى ظهر من سلوكه أنه يعد نفسه لأن
يكون كاتب رسائل يضمنها آراءه لمعارفه وأصحابه تاركا الرواية

لأصحابها من أمثال الأصمعي وأبي عبيدة — يشارك في القضية مشاركة ايجابية . وكان حريصا دائما على نقض الغبار عن ثيابه كلما اضطر الى الطعن في علي بن أبي طالب ، مع اعلان احترامه له أحيانا وتخطئة من حاربه . واضطر في كثير من الأحيان الى أن يقول « الشيعة رجلان زيدى ورافضى » وكان يغلب على علوية البصرة الزيدية ، وهم أتباع زيد بن علي الذي قتل سنة ١٢٢ ، في حين غلب الشيعة الرافضة على الكوفة وسموا بالامامية ، وأخذ يردد آراء الأولين — كأنها له — مدعيا أنه إنما يريد أن يعرض من الشيعة في أحسن لبوسهم ، ويذكرهم بخير صفاتهم .

وصادف هذا هوى في نفس المأمون ، وكان ميزان القوة قد أخذ يرجح به ، كما لم يثر المعتزلة لأن الزيدية كانوا أقرب الفرق الاسلامية الى الاعتزال . فلما انكسر الأمين ، وعقد المأمون للفضل ابن سهل من جبل همدان الى التبت ومن بحر فارس الى بحر الديلم ، وولى أخاه الحسن بن سهل ديوان خواجه (٢١) ، وتلقى بغبطة انتصار قائده طاهر بن الحسين في الأهواز وواسط والمدائن وصرصر ، كان على الجاحظ أن يجاهر بآرائه تلك وبخاصة أنه أرضى المعتزلة ارضاء كاملا ، وهل لم يكن زيد في الأصل الا تلميذا لو اصل بن عطاء أول المعتزلين ؟

غير أن هذا أوقع الجاحظ برغم كياسته ولباقته في حرج التوسط ، فيما درج عليه الحمراء من حب للعلوية ، وآله أن يتغنى العامة — الذين يؤثرهم — بقول الفضل بن سهل عندما كان المأمون في خراسان :

— أنت نازل في أخوالك ، وبيعتك في أعناقهم .

فأخواله هم الفرس ، وكان الخراسانيون يشيرون إليه
بابن الأخت ، في الوقت الذي كان الموتورون فيه يصيحون :

— فليقض على بني هاشم ، فهم سند الأمين !

وأشاعوا أن عبد الملك بن صالح لم يقتله الفضل بن الربيع ،
وإنما قتله جند المأمون . وبعد حصار طويل فتح الطريق ، وأخذت
فلول الحمديّة أتباع الأمين تذوب في السواد . وأقبل على البصرة
مئات فيهم الحسين بن الضحاك الخليج يعلن أن أبا نواس قضى
وأن العلوية يطلون برأسهم في عناد ، فثار من ثار في البصرة .
وجاهر بعضهم بغضبه على المأمون ، واشتبك بعض آخر في نقاش
كان واحد كالأصمعي ينهيه بقوله :

— والله لن أترك ما أنا فيه من حبي لأرومتي ، أما الحمراء
فلن تظفر مني إلا بمثل ما أظفرتها به من قبل حتى وإن تكن اليوم
أخوالا للامام ، وأما العلوية فهم في مخاصمتي حتى يكفوا .

وعبثا حاول الجاحظ أن يخفف من غلوائه ، وما أشرف
عام ١٩٩ على نهايته حتى كانت الكوفة تشق عصا الطاعة بقيادة
ابن طباطبا ، وقتله أبو السرايا ليقيم مكانه ولدا من آل علي ،
ثم يزحف باسمه على البصرة ويوقع بأهل واسط . ولقد حرص
أبو السرايا على أن يستميل إلى جانبه البصريين ، فلما أسقط في
يده نكل بهم ، فتوارى أمثال الأصمعي لئلا يلحق بهم أذى علوي
أو مأموني ، في حين نشط الجاحظ . حتى تصحو البصرة ذات

يوم من سنة مائتين على نبأ يقول : ان أبا السرايا ترك الكوفة هاربا ، فكان لابد أن تعلن البصرة ولاءها لهرثمة بن أعين قائد المأمون . وكان ما أثار دهشة الجاحظ أن يأمر المأمون هرثمة بالقضاء على كل ما للعلويين من نشاط ، وفي ذات الوقت يبيع لعلى الرضا بولاية العهد سنة ٢٠١ .

ولم يجد الجاحظ ما يفعله في تلك الحقبة الصاخبة المليئة بالتناقض ، الا أن يعود الى أوراقه ينسق الشتيت منها ، عاقدا عزمه على نشر سلسلة من الكتب يتعيش بثمنها . فأصدر « كتاب النساء » و « كتاب اللصوص » سلك فيهما مسلك الرواية ، ولم يلقيا رواجاً كبيراً . وفي هذا الوقت وصلته للمرة الثانية دعوة من ثمامة بن أشرس والنظام ليزور بغداد ويتصل بأولى الأمر فيها ، فتردد .

ولكن الدعوة دفعته الى أن يخرج بكتاب « الاعتزال » وأتبعه بكتاب « وجوب الامامة » متجاوبا مع أحداث العصر والبلد ، ومحاولا أن يفصل في مقالات تلك المشكلة التي تشعبت بين التقديس المتطرف لها وبين انكار القول بوجوبها ثم يبين القول بضرورة توحيدها والقول بجواز تعديدها . وحينذاك يصدر المأمون أمره الى العلماء بالاسهام العملى فيها ، ويرسل للجاحظ من بغداد أحد أساتذته القدامى — هو أبو محمد اليزيدى المتوفى سنة ٢٠٢ — أن يكتب في أمر الامامة ويبحث بكتابه أو كتبه الى مرو حيث يقيم المأمون .

وهنا يجد أبو عثمان الجاحظ الفرصة مهيأة أمامه ليصل الى ما تمنى أن يصل اليه . وفي ذات الوقت يستطيع أن يعلق رأيه في مشكلة العرب والفرس ما دامت النزعة الفارسية شيعة بطبيعتها ، وما دام في قدرته أن يكشف عن أبعاد هذه النزعة وقيمتها . ولم يفته بطبيعة الحال أن يبدو عادلا ، فيتنبك طريق الأصمعي التي تصخب بالصراخ ضد الحمراء ويختار طريق المصانعة ناشرا كتابه « فضل الفرس » دون أن يقبل فيه تهنة أحد ، ورفض أن يتحدث أبو عبيدة بتوفيقه فيه ، وقد أتبعه بكتاب « التسوية بين العرب والعجم » .

ولقد طرح أمر الامامة في أكثر من كتاب استعان عليها بوراق اسمه أبو يحيى زكريا بن يحيى أسعفه بسرعة يده وجودة خطه ، فأعد « الدلالة على أن الامامة فرض » مستبدلا اياه بكتابه الأول « وجوب الامامة » كما أعد « كتاب الامامة على مذهب الشيعة » و « كتاب الرافضة » و « كتاب حكاية قول أصناف الزيدية » .

وطيرت الكتب الى المأمون ، ولم يكن الا قليل حتى عرف أنها جاءت على ما أمر به بعد أن استشار فيها الزيدى وقرأها . وهنا أرسل له فشد اليه الرجال مصطحبا وراقه ، فلما مثل بين يديه قال له :

— قد كان بعض من نرتضى عقله ونصدق خبره خبرنا عن هذه الكتب باحكام الصنعة وكثرة الفائدة ، فقلت له قد تربى الصفة على

العيان ، فلما رأيته رأيت العيان قد أربى على الصفة ، فلما فليتها
أربى الفلى على العيان كما أربى العيان على الصفة .

وسكت قليلا ، ثم أشار الى كتاب الائمة على مذهب الشيعة
وقال :

— وهذا كتاب لا يحتاج الى حضور صاحبه ، ولا يفتقر الى
المحتجين عنه ، قد جمع استقصاء المعاني واستيفاء جميع الحقوق ،
مع اللفظ الجزل والمخرج السهل .

الباب الثاني

شيخ الكتاب

١ - ديوان الرسائل

صحت نية الجاحظ عقب هروبه من بغداد سنة اثنتين ومائتين على اللحاق بالمأمون في مرو ، بعد أن خلعه عمه ابراهيم بن المهدي وبايع لنفسه وتلقب بالمبارك . وكان من الصعب على وزيره الفضل بن سهل أن يعمل له شيئا على الاطلاق ، وعجز تماما عن أن يجمع له الجموع أو حتى يستميل أقطاب المعتزلة — من أمثال ثمامة بن أشرس وأحمد بن أبي دؤاد — وطائفة الكتاب التي بدأ يتزعّمها محمد بن عبد الملك الزيات مزاحما ابراهيم بن العباس الصولي .

كانت هناك أنباء بعزم المأمون على المقاومة ، وقيل انه استخلف على خراسان غسان بن عباد ، لكن لما وصل الى سرخس ، وصاحب وصوله مقتل الفضل وهو يستحم ، رأى من العث أن يشارك بأي عمل يقربه من الرجل الذي عقد عليه آماله في هذه المرحلة من حياته .

وبينما كان ينزل ضيفا على ابن أبي دؤاد قاضي القضاة — وقد عرفه به ابنه أبو الوليد محمد — في ضيعته بالمدائن نمي اليه وصول ابراهيم بن المهدي اليها ، فاضطرب وجزع . إلا أن الغد

لم يلبث أن أسفر عن عجب ، ذلك أن ابراهيم تركها فجأة الى العاصمة ، بعد أن جاءتة الأنباء بوصول المأمون اليها وخلعه هو عن عرشها . وهنا لم يجد الجاحظ بدا من أن يعاود طرق أبواب القصر من جديد ، لكن سماعه بقيام الفتن فيها قتل في أعماقه تلك الرغبة فرجع الى البصرة يجزر أذيال الخيبة ويجتر الغصص .

وفي بلده جاءتة الأنباء ، ولكن ما الجدوى فيها ؟ وانكب على الكتابة ، ولو نظرنا الى هذه الرسائل المتنوعة التي قام بتأليفها على البديهة ، وفي أوقات قصيرة ، لوجدناها كافية لأن تجعل منه رجلا علميا . لكنه كان بعزيمته وجه للحياة يتمسك بالبقاء ، لا حيث هو وانما حيث يطمع أن يكون . ومن ثم كان حرصه على الاتصال بشامة والنظام وأحمد بن أبي دؤاد . ومع ذلك كان لا يني يتساءل : لماذا الحرص على أن يربط نفسه بأثقال حياة معينة ؟ أليس في أن يعيش مائة حياة متنوعة خير كل الخير ؟

اتنى لا أريد المال في واقع الأمر ، ولكنى أريد مسرات هذه الدنيا مهما تكن الوسيلة اليها . ان الشيء الذي اخال أنى أملكه هو الذي يملكنى في الحقيقة بحكم تعلقى به ، والموضع الذي أظن أنى قادر على أن أتحرك فيه هو سجنى الذي أعد لكى أموت فيه .

ليس فى الأرض ما يحزب كثيرا ويسرى ، فليكن ما يكون على أن أعادو — حقيقة — سيد نفسى .. لكن كيف ؟ ولم ينتظر الا انقضاء العام ليعرف الجواب ، فقد أخطر بدخول

المأمون بغداد سنة أربع ومائتين . ووصل الى القصر بدعوة من
ثمامة بن أشرس ، تزكيها شهادة الخليفة بدقة كتبه في الامامة ،
وحسن الاشارة عنه من جانب أحمد بن أبي دؤاد . وقد تأكد من
اتهاء متاعبه عندما أسكن قريبا من دار ثمامة ، وعرف كثيرا من
علية القوم ، وألحق بخدمته قهرمان زنجي وتسرى بجارية .
وعلى الرغم من أن آماله اذ ذاك كانت لا تتجاوز اسناد فرع
المكاتبات من ديوان الرسائل اليه — حتى وان كان ذلك على
حساب سهل بن هارون الذي كان يسعى الى ترك دار الحكمة
اليه — فقد مكنت له صلته بالخليفة من أن يخلف على الديوان
ابراهيم بن العباس أكثر من مرة في غيابه ، ثم أنهى اليه رسول
ثمامة ذات يوم وهو جالس مع وراقه زكريا في بيته الخبر الأكبر :
— مولاى أبو معن يقرئك السلام ويهنئك بالديوان على أن
توافيه الساعة قبل أن تلقى أمير المؤمنين في قصر الخلد .

وأسرع الجاحظ الى دار ثمامة ، فاذا هو يخرج بنفسه اليه
ويعاقله على الباب ، ثم يأخذ بيده الى الفناء الواسع الذى فرشت
أرضه بالبسط الملونة ، وألقيت الوسائد والتمارق حول سماط
مستدير الى حيث يكون قريبا من البستان الملىء بأنواع الورود
والرياحين والفاكهة .

ولم يكن هناك الا ابريق النييذ وكأسان وطبقان مملوءان
تقلا وبقلا ، وقد بدأ ثمامة ، فملا للجاحظ كأسه ، وعب من الأخرى
ثم قال :

— لقد جاءتك طواغية فما ترى يا أبا عثمان؟

قال الجاحظ :

— ما كان لى يا أبا عثمان فقد أتانى ولكنى أخشى ابن هارون وابن خاقان وابن الخصيب ونجاح بن سلمة وآل وهب ، وكلهم كما ترى يصلح للرياسة وكتب للخليفة ، ومن وراءه جماعة تشد أزره .

قال ثمامة :

— على أنى أراهم دونك وينتقصهم عنك أمير المؤمنين ، وقد ذكر لى أنه اختبرهم فما وجد فيهم مثلك من يجمع لأقطار الكلام ويتمكن فى الصناعة حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة .

فتساءل الجاحظ بقوله :

— والجماعة؟

فأجاب ثمامة :

— أفتسأل يا أبا عثمان عن الجماعة بعد ما كان من أمر كلامنا عنهم فى مجلس بشر بن المعتز أمس؟

ثم خرجا الى قصر الخلد ، وكان مقاما على شاطئ دجلة وموضعه وراء باب خراسان ، ويخوى من العجائب ما يتضاءل ازاءها قصر الذهب الذى بناه المنصور فى وسط بغداد ، وجعل له القبة الخضراء التى ترى من أطراف المدينة البعيدة وتروع بتمثال

الفارس الراح الذي يتسنىها . وقد صادف دخولهما القصر خروج
ابن الزيات وابن أبي دؤاد ، فتبادلوا السلام ، حتى اذا توسط
الردهة التي تقضى الى مجلس المأمون ، قال ثمامة :

— بينهما يا أبا عثمان ما لو حملة جبلا طيء لناء ، لكن
ما يقع بينهما حتى اليوم لا يعدو الوعيد والصخب .
قال الجاحظ :

— كأنهما فأران يتحرش كل منهما بالآخر ولا ..

قال ثمامة :

— أعرف ما تقول !

وأدخلا على المأمون ، فاذا هو جالس في صدر البهو على
سرير من الآبنوس مموه بالذهب وملتصق بجائط زينتة النقوش
الدقيقة ، وأحمد بن خالد الأحوال وزيره الى جانبه وعدة من الخدم
الترك يحدقون بهما . وقد أحس الجاحظ على الفور مدى ما يكنه
الخليمة لثمامة ، كما لم تغب عنه نظرة الشكر التي ابتعثت من
عيني الوزير فقد كان ثمامة رشحه للمنصب بعد موت الفضل
ابن سهل .

وقد سلم الجاحظ فأحسن السلام ، فقال المأمون وهو يلتفت
الى ثمامة :

— ينحى قليلا يا أبا معن حتى يسكن روعه وواصل أنت
ما انقطع من حديثك عن الاستطاعة !

فقال ثمامة :

— يا أمير المؤمنين خير من يقوم بذلك أبو عثمان هذا ، وقد شرفت برئاسة أعمال الديوان وما عليه الا أن يتحدث في ذلك ليرينا كيف يكون الشكر منه .

٢ - أيام الديوان الثلاثة

لا مناص من الاعتراف بواقع لا حيلة له فيه ، وهل في وسعه أن ينكر أنه غير راض على رغم ظفره بالمنصب الرفيع . لقد وجد أعوانه من الكتاب في خلق حلوة وعلى نظرف أهل الفهم ، وبدا على كثير منهم وقار العلماء ، فجاذبهم الحديث وامتحنهم فوجدهم كالزبد يذهب جفاء .

فعلام أغبط نفسي ؟

وأى غناء فيمن سألته سؤال الامام لأبى معن ، فأجاب اجابة العوام ، أو اجابة مخالفينا في القدر .. هل تعرف في كتاب الله تعالى أنه يخبر عن الاستطاعة أنها قبل الفعل ؟ فلم يتذكر حتى قوله تعالى : « قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، واني عليه لقوى أمين » وبعضهم قال : سئلت أن تخبر عن الله فأخبرت عن عفريت لو كان بين يدي لبزقت في وجهه ! وكان على أن أقول لو كان مثل هذا القول كفرا وافتراء على الله ومغالبة وتفويضاً للمشيمة الى نفسه ، لكان سليمان ومن حضره من الجن والانس أحق بالانكار . بل لم يكن العفريت في هذا الموضع هو الذى يسرع فيه ويذكر الطاعة ولا يتقرب فيه بذكر

سرعة النفوذ ويشر فيه بأن معه من القوة المجعولة ما يتهياً لمثله قضاء حاجته فيكذب ، ثم لا يرضى بالكذب حتى يقول قولاً مستنكراً ويدعى قوة لا تجعل له ، ثم يستقبل — بالافتراء على الله تعالى والاستبداد عليه والاستغناء عنه — نبيا قد ملك الجن والانس والرياح والطير وتسير الجبال ونطق كل شيء ، ثم لا يزجره ، فضلا عن أن يضربه ويسجنه ، فضلا عن أن يقتله (٣٣) .

عجبا لك ، فان الله تبارك لم يجعل ذلك القول قرآنا ويترك التنبيه على ما فيه من العيب الا والقول كان صدقا مقبولا ، وقد سمعه رسول الله وتلاه على الناس — وما زالوا يتلونه في مجالسهم ومحاربيهم — أفما كان في جميع هؤلاء واحد يعرف معرفتك أو يغضب لله تعالى غضبك ؟

وفي اليوم الثاني أراد أن يمزح وكان قد أدخل عليه أبو العيناء الذي اصطفاه ضمن من اصطفى من أصدقاء بغداد ، فأسر الى حاجبه أن يصل به الى حيث لا يستطيع خروجاً أو رجوعاً اليه . وبعد ساعة من المحاولات الفاشلة صاح أبو العيناء وكان أعمى :

— يا أبا عثمان قد أريتنا قدرتك فأرنا عفوك !

وتسامع بالنبا ندماؤه وأصدقاء اللهو — السدرى والجماز والتمار وأبو هفان — فقالوا :

— ألم يقرأ فيما يقرأ : اذا ارتفعت فلا تنس وضاعة أصلك ؟

— ها أنذا محسود ، وأعير بما كنت أعير به غيرى . فالأيام دول واليوم اذا كان لى فلا ندرى أين الغد منا ، وان كنا نخوض

فى القدر على ما نريد ويريد أبو اسحاق والعلاف وثمانة وبشر
ومعبد . معاشر الكتاب ما أعلم أهل صناعة أكثر الى التقاطع عند
الاحتياج منكم ، وأنا فى ذروة الزهد فى التعاطف عند الاختلال ،
وانه ليلغنى أن رجلا من القصايين يكون فى سوقه ، ويتلف ما فى
يديه يخلى له القصابون سوقهم يوما ، ويجعلون له أرباحهم فيكون
يربحها منفردا ، وبذلك يسدون خلته ويجبرون منه كسره .

وفى اليوم الثالث دخل عليه عمرو بن مسعدة ثم عمر بن فرج
ونجاح بن مسلمة ، وقالوا ما قالوا . وسمع الجاحظ فأحسن
السمع ، واذا كل أهل الديوان ذوو فضل وعلم وأخلاق .
ولما خرجوا دخل عليه أحمد بن عبد الوهاب وهو من رفقة محمد
ابن عبد الملك الزيات وأحد الشيعة المتطرفين الذين يقولون
بالمناسخة والرجعة ، وقد قدم الجانب الآخر من الكتاب هابطا
بسهل بن هارون الذى ينفس على الجاحظ مركزه ومنتقضا من
ابن أبى دؤاد الذى يقحم نفسه فى زمرة هى منه براء ، ومشيدا
بابن الزيات الذى لا يمكن أن يجاوز درجته هو ، وبعد ذلك حيا
وأفاض عليه مما يراه أهلا من ثناء هو من نعيم الدنيا ، فقال
الجاحظ :

— حمدا لله طعمنا حتى بشمنا .

قال أحمد :

— لا يا أبا عثمان ، والا فلمن الحجبى ، وسداد رأى ،
والحرثومة النبيلة والنسب الأصيل ؟

قال الجاحظ :

— فقد رأيته أطنبت باحمادي وحكمت بفضلتي على نحو ما فعل بعض أغاث شعرائنا بالبصرة . أتدري ماذا كان من أمره ؟ دخل يوما على رجل من أشرف الوجوه يطعن في نسبه فقال « اني مدحتك بشعر لم تمدح قط بشعر هو أنفع لك منه » قال « ما أحوجني الى المنفعة ولا سيما كل شيء منه يخلد على الأيام ، فهات ما عندك » فقال :

سألت عن أصلك فيما مضى أبناء تسعين وقد نيّقوا
فكلهم يخبرني أنه مهذب جوهرة يعرف
فقال له : « قم في لعنة الله وسخطه ، فلعنك الله ولعن من أجابك » .

قال أحمد كالمستكر :

— فأنا كهذا الغث اذن يا أبا عثمان ؟

قال الجاحظ :

— لا أعرف والله ، غير أنني لست بمدوحه على أي حال !

قال في صفاقة :

— أنت وفقك الله فوق الظنة وعلى أكثر مما نصف ، الا أن يشاء شاتوك الطعن فيك ، والاتقاص من قدرك ، مدعين أنك لا تجيد الا أبعاضا شتى .

قال الجاحظ :

— ألم يدروا أن من الأبعاض يلتئم الكل ، والكل أشكال ؟

ولست أدعى رحمك الله الاحاطة بكل الأشكال ، لكن من عجز
عن نظم البعض وعن وضعه في مواضعه كان عن بلوغ آخره وعن
استخراج أى شيء فيه أعجز ، والمتح أهون من الاستنباط والحصد
أيسر من الحرث . ألا دعنى أذكر أن هذا الباب ان فتح صعب
اغلاقه ، فثمة من هو أكثر منى رواية أضعافا ، وأجود منى حفظا
بعيدا وأوسع علما وأتم عزما وألطف نظرا وأصدق حسا ، وأغوص
على البعيد الغامض وأفهم للعويص المتمنع ، ولكن الجلوس اليه
ها هنا هو الأمر المعجز . وانى والله لتارك هذا المجلس لغيرى
ممن يكتمل فعله وقوله جميعا ، ان كنا قصرنا فجئت تذكرنا
بالكمال ، وهو المحال . وما أشك أن عند الوزراء فى ذلك ما ليس
عند الرعية من العلماء ، وعند الخلفاء ما ليس عند الوزراء ، وعند
الأنبياء ما ليس عند الخلفاء ، وعند الملائكة ما ليس عند الأنبياء .
وقد أردت أن لا أكون واحدا من هؤلاء شئت أو لم أشأ ، لأن
الذى عند الله أكثر ، والخلق يا ابن عبد الوهاب عن بلوغه أعجز !
واتفضل خارجا ، ولم يعد الى مجلسه هذا بعد ذلك قط .
أما المأمون فقد عجب ، ولكنه قال :

— لا شك أن قل شهداؤه وكثر خصماؤه .

فى حين أقبل الكتاب بعضهم على بعض يتخاشنون ويتلاومون ،
وقال قائل فيهم :

— خلت الحلبة .

وأعلن سهل بن هارون أسفه ، ولكنه أضاف قائلا :

— طالما قلت : انه ان ثبت فى هذا الديوان أقل نجم الكتاب !

ازداد اعجاب المأمون بالجاحظ ، وبه فتن هذا الرجل وسعى من أجله في المجالس . وفي الوقت نفسه راح يسجل كل ما قيل عنه أو يحفظه ، ناقلا عن الجميع .. يستوى في ذلك خصومه وملازموه ، وإن يكن قلبه عن ثمامة وسهل بن هارون أعم . وكان عام عشرة ومائتين من الأعوام الحاسمة في حياته ، فقد شهد له أمير المؤمنين فيه بالفضل على الجميع ، وحضر حفل دخوله ببوران بنت الحسن بن سهل وظفر منه بجارية أديبة أريية — وهذا شيء لم يقع لأحد — وتخلّى عن ضيعة سميت له عندما نثر ابن سهل رقاعا على المدعويين ، وفيها أسماء الضياع التي أزمع اهداءها لعلية القوم في يوم الزفاف .

ولم يلبث غير قليل حتى كان من القلة التي حضرت محاكمة ابراهيم بن المهدي الذي بايع لنفسه بالخلافة ، ثم هرب حتى قبض عليه متتكررا في زى امرأة وأدخل على الخليفة (٢٣) وجلس هو الى جانب ثمامة وأحمد بن أبي دؤاد وابنه محمد وابن الزيات والمعتصم والعباس بن المأمون .

وعلى قدر الحضور تفاوت الزى ، فثمة من كان يضع المبطنة ، وثمة من كان يلبس الدراعة أو القباء ، وفئة من الجند لبست الوشي وأخرى ارتدت القزاكند (٢٤) ، وعلقت الخناجر . وكان ابراهيم بن المهدي يحجل في قيوده ، الا أنه انحنى طويلا ثم غنم : — السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فقال المأمون ، وقد احمر وجهه الأبيض ، وراح يمسح على
لحيته المسترسلة :

— لا سلم الله عليك ولا حفظك ولا رعاك ولا كلاك يا ابراهيم .
ولكنه بعد أن عفا عنه قال في نفسه « هذا هو الرجل العظيم ،
وهذه هي الجسارة التي تمكن له ، حتي وإن لم يتحصن من
الكوارث كما ينبغي . ولكنها المغامرة التي أعشقتها ، والتي يسم
لها أصحاب الجدود . لقد رفعته كما رفعه جده ، ومحال أن أجد
الشقاء في ظل من يرفعه هذان ، لأنتي أو من بهما ايماني بأن
الغدا لي » .

ان آراءه تبدو لي أشد أثرا مما يفتي به يحيى بن أكثم
وابن أبي دؤاد ، على تفاوت ما في قلب كل منهما من هوى الى
الجماعة (٢٥) والاعتزال ، لكنني حري أن أشعر بالخوف اذ أتبين
ما ينبغي أن يؤديه مقابل جعل عجلة الأيام تدور برغم تنازع القوى .
يجب أن نقدر ونقدر .. هذا حق ، لكن ليس على طريقة
ابن الزيات الذي أحبه وأكره فيه غروره ، وليس على طريقة صديقه
ابراهيم الصولي في الشره والرقاعة ، أو أحمد بن عبد الوهاب
في اللؤم والطيش والجهالة ، أو ..

لكن ما بالي أعود الى أخذ الناس بعيوبهم ؟

اننا لا نستطيع أن نهيمن على الحياة بطريقة أي منهم ، لكننا
نستطيع اذا اخترنا أطيب ما فيهم وحددنا الطريق . ولقد هيئت لي
السييل ، وتمكنت منهم يوما فهل تراني أبتئس لأنني انقطعت ؟

هذا هو العام الحادي عشر يأتي والناس بين مؤيد للعن
معاوية وتصويره في صورة الخارج على الاسلام ، وبين معارض
لذلك لأن له صحة فيكون سببه بدعة .

وكان الجاحظ يرى أن يسب معاوية كما رآه ثمامة ، وكما
أوعز الى أمير المؤمنين أن يراه (٢٦) ، وفي الجانب الآخر وقف
يحيى بن أكتم ومعه الوزير أحمد بن أبي خالد ، وأهل السنة ،
وعاصفة من الكراهية .

على أى حال أمر المأمون مناديا ذات يوم فنادى « برئت الذمة
ممن ذكر معاوية بخير ، أو فضله على أحد من أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم » . وكان لا يبد للجاحظ من أن يشارك في
المعركة ، فأخرج « كتاب امامة معاوية » بحاجة عن صنيع الخليفة ،
ودعما لرأى ثمامة وتسفيها لرأى النابتة (٢٧) الذين أثارهم استجابة
المأمون للمعتزلة .

وقد لا يستبعد مطلقا أن يكون ثمامة هو الذي دفع الجاحظ
الى تأليف ذلك الكتاب ويقدمه الى ابن أبي دؤاد ، كما لا يستبعد
أن يكون الجاحظ قصد به الى ثمامة نفسه لأنه كتب في رسالة
النابتة « وقد كتبت مد الله في عمرك كتبنا في مفاخرة قحطان ، وفي
تفضيل عدنان ، وفي رد الموالي الى مكانهم في الفضل والنقص ،
والى قدر ما جعل الله لهم بالعرب من الشرف » (٢٨) . وكان
أبو معن ثمامة على قمة المشتغلين بهذه القضايا الى جانب اهتماماته
بقضية خلق القرآن التى ظل أحمد بن حنبل بطلها الى سنوات !

ولا بأس من أن نناقش كتبه آنذاك ، فإن آراءه فيها تبدو عظيمة الحيوية . وهى تمزج بين النظر السياسى والنظر الدينى ، وتوحد بين العقيدة من حيث هى احساس عارم بالقومية ، ورغبة صادقة فى تحقيق فكرة الانسانية . وكم تبدو لنا حياته فى تلك الفترة شيئا معقدا مثقلا بضروب المنافحة اذا ما قورنت بحياة صديقه النظام الذى آثر الكلام ، وكاد يتجنب الأغمار الذين كان يحس أنه مطالب بجمعهم على رأيه فى الاعتزال .

اتنا ننظر الى ما قبل والى ما بعد ، ونوازن وتقدر ، وأغلل الحكم تصل صليلا لا يتقطع فى أعقابه كلما حرك قدميه ، أو أمر كاتبه أبا يحيى زكريا أن يكتب . فهو معتزلى وأصدقاؤه معتزلة ، وأمير المؤمنين نفسه « أعظم » من يفكر فيهم ويدبر . لكن اذا كان من الناس من ينكر « فكرتهم » الاعتزالية — وهى شاملة للغاية — فلا بد أن يوفقوا أولا بينهم وبين أنفسهم . فثمة عرب ، وهم موزعون بين قحطانية وعدنانية . وثمة مسلمون ، وهم مفترقون على موال وعرب . وثمة بيض وسود وشيعة وسنية ، وبين أولئك فئات وجماعات وزمر وشيع وأحزاب .

أما القحطانية والعدنانية التى أشار الى قضيتهم لمحا فى كتابه « النابتة » ، فقد برزوا فى إطار أدبى لم يخف قط الصراع القبلى الذى لم يختلف فى هذا العصر عما كان عليه أيام الأمويين ، وامتد الى حكم المنصور والمهدى العباسيين .

وأما الموالى والعرب فقد جمعهم في كتاب واحد ذكره في الحيوان بقوله : « وعبتنى بكتاب العرب والعجم ، وزعت أن القول في فرق ما بين العرب والعجم ، هو القول في فرق ما بين الموالى والعرب » (٢٩) . وعنى بوجه خاص بوصف حياتهم ورصد تاريخهم وإيراد حججهم بصورة جعلت الموالى دون ما كانوا يتطلعون إليه إذا قيسوا بالعرب ، غير أن الأمر لا يخلو من محاولة ذكية منه استهدفت التقريب بين الجميع على قاعدة اجتماعية عريضة . فلقد « جعل الله المولى بعد أن كان عجميا عربيا بولائه » كما جعل حليف قريش من العرب قرشيا بحلفه ، وجعل اسماعيل بعد أن كان أعجميا عربيا ..

وهناك كتابان له يسهمان في المعركة بطريقة ايجابية : أولهما « كتاب الصرخاء والهجناء » والثاني « كتاب فخر السودان » وتبدو القضية فيهما متماسكة الأطراف . ذلك أن الصرخاء هم العرب الخلص والهجناء هم أولادهم من الاماء أو الجوارى — وقد جعل الكتابة عنهما على سبيل المحاكمة ، يدلى الأولون بحججهم ويرد الآخرون عليهم — ولما لم يهيا للسود الخلص (٣٠) أن يقولوا شيئا في الكتاب الأول فقد أفرد لهم الثاني يصولون فيه ويجولون قاصدا الزنج ومن اليهم من سكان النوبة والحبشة في المحل الأول ، وجاعلا في المرتبة الثانية أهل السند والهند وسرنديب وزنجبار والصومال ، وبعض قبائل العرب القتم من أمثال بنى سليم بن منصور وأهل الحرة . وسيكون لهذه الجماعات

دورها الخطير فيما بعد ، وذلك عندما تلعب دورها في الثورة التي
نشبت في منتصف القرن الثالث ، وكادت تطيح بالعباسيين الى
الأبد (٣١) .

وإذا كان من جدوى بعد أن تقاضته الحياة في اطارها الواسع
— العدناني والقحطاني والشعوبي — كل ما أنقذه من جهود
متفاوتة البواعث ، فجدوى بعث عنصر له مقوماته وتاريخه وأبطاله
وشعراؤه المنافعون عنه . فهناك أرباط وأبرهة والنجاشي ، وهناك
الأغربة كعباس بن مرداس وعنترة وسليك بن السلكة وبلال
والمقداد بن الأسود وسعيد بن جبير ، كما أن هناك من الشعراء
من لم ينبه اليهم سوى الجاحظ وهم الحيقطان وعكيم وشيخ
ابن رباح . وكأنه راح يشير الى نفسه ممتدحا فيهم خصالا بغض
النظر عن سواد لونهم الذي عملت الطبيعة فيه عملها ، وكأنه أيضا
كان يطلب من المجتمع أن يدع هؤلاء لكي يعيشوا كما يريدون
تطبيقا لمبدئه الذي كان يحرص على احترامه .

ومن بعيد كان يقدم الدليل العملي على أن « الصراحة أولا »
هي التي تملئ عليه أن يقول كل شيء عن أي شيء !

وما كان له بعد ذلك أن يسكت عن مشكلة « خلق القرآن »
وكان يلح عليها صديقه وولي نعمته ثمامة بن أشرس . ونظالم في
كتاباتنه أنه اضطر الى أن يواجهها بصراحته المعروفة ، لكن بدأ بها
مجرد مراقبة لهذا الشيخ الذي كان يقعد في المسجد الجامع ببغداد
— هو ابن خنبل — ويهاجم كل عالم يستعين بالعقل والقياس

في المسائل الاعتقادية ، مركزا أولا على الحارث بن أسد المحاسبي
الزاهد المتصوف ، ثم متطرقا الى نقد محاولات أمير المؤمنين أن يعلن
القول بخلق القرآن بعد أن اعتنقه رسميا في ربيع الأول
سنة ٨٢٧/٢١٢ ، يسنده الى جانب ثمامة أحمد بن أبي دؤاد
قاضي القضاة .

على أن الجاحظ لم يكن رجل علم ودين فحسب ، وانما كان
أيضا رجل دنيا يعرف أنها أبدع ما تكون في حضن جارية وعلى
مائدة نبذ وبين أمثال التمار والجماز والسدرى من المتماجنين
اللاهين .

وهو يؤكد أن « الجميع » مثله .. حتى الخليفة نفسه ، وهذا
السنى المتزمت — يعنى ابن أكثم — يرفض الا أن يجعل كاتبه
زيد بن أيوب قوادا ، في حين كان النظام يصرح — وقد أصبح العلم
في الاعتزال — أن معاشرة الغلمان لا تهبط بقدر الرجل قط !

واذن فليكتب في هذا الجانب اللاهى الطريف . وفي سنة خمس
عشرة ومائتين يضع « كتاب المقينين والغناء والصناعة » في صورة
رسالة (٣٢) تنقسم قسمين : أولهما في دفع اتهام الخصوم — عنه
بصفة خاصة — والثاني : في بيان مزايا القيان وصناعة التقيين ،
موضحا كثيرا من حياة المقينين المؤثرين للذة ، ومحدددا أبرز
العلاقات التى تنشأ عادة بين القيان ورواد دورهم من الربيطين .

ولم يكن الجاحظ بحاجة الى أن يقول « فوضعنا في كتابنا
هذا حججا على من عابنا بملك القيان ، وسبنا بمنادمة الاخوان وقيم

علينا اظهار النعم والحديث بها » لأنه هو نفسه كان يجاهر بحقه في أن يعيش دون أن يجعل لاستقباح الناس واستحسانهم سبيلا الى منعه من نعمة متاحة ، وبخاصة أن « كل شيء لم يوجد محرما في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمباح مطلق » ولم نعلم للغيرة في غير الحرام وجها ، ولولا وقوع التحريم لزالَت الغيرة ولزمننا قياس من أحق بالنساء فانه كان يقال : ليس أحد أولى بهن من أحد ، وانما هن بمنزلة « المشام والتفاح » الذي يتهداه الناس بينهم !

ومع كل هذا فقد كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال للحديث ، وتزوج الحسن بن علي حفصة ابنة عبد الرحمن ، على الرغم من أن المنذر بن الزبير كان يهواها ، وكان معاوية يأتي بالجارية فيجردها من ثيابها بحضرة جلسائه ، ونظر المأمون الى سكر فاحتال حتى وقع عليها ثم خلى سبيلها ، مع أنه دفع فيها عشرة آلاف درهم .

تلك هي الخطوط العريضة لشخصية الجاحظ الشهوان .. جريئة مقدمة ، ولا تختلف كثيرا عما كانت عليه قبل أن يشيخ ويتحمل مسئولية رجل العلم والدين والأخلاق . وربما لا يبدو فيها حكيما ، غير أنه يكشف بوضوح عن أن أيامه في بغداد غدت مهرجانا صاخبا — لعله كان أشد مهرجانات بغداد — قصبة اللهو والبذخ والجوارى والنييد — تبذلا . ولكنه نجح في أن يظهره برصانة يحدها المنطق ، وتترأى لعيوننا أشباح القيان والريطين

والمقنين في مظهر مشروع ، على أساس الفكرة التي تقرر أن تجارة الرقيق من التجارات القانونية التي تقع عليها المساومات والمشاركة بالثمن ، ويحتاج البائع والمبتاع الى أن يستشفا « البضاعة » ويتأملها تأملا يينا .

وأنا يا هؤلاء المستمعين بالنعمة — من أمثال موسى بن اسحق بن موسى ومحمد بن خالد وعبد الله بن أيوب وأبى الخيار وأبى الرنال ومحمد بن هارون كبة — ميين لكم الحسن وأساليب مكاملة القيان ومفاكتهن ومغازلتهن ، وكاشف أيضا عن الحب والهوى والمشاكلة والالف (٣٣) ، وله ابتداء في المصاعدة ووقوف على غاية ، وهبوط في التوليد الى غاية الانحلال ووقف الملال .

قد تقولون عنى متبجح مدع مغرور ، ولكنى أصدقكم كل شيء . فلى نظرى وخبرتى الطويلة التى تطالبنى بأن أقول لكم مثلا : ان عشق القيان — على كثرة فضائلهن — آفة ، وان اللذات كلها انما تكون بالحواس ، ولا شيء بعد ذلك كما يزعم المتصوفة والنساک !

ه - رحلة جديدة

وفى البزندون — وهى قرية بينها وبين طرسوس يوم — قضى الجاحظ مع أمير المؤمنين المأمون آخر يوم في حياته ، وكان لثمان خلون من رجب سنة ثمانى عشرة ومائتين ، وتناول معه فيه بالتعليق على عملية امتحان القضاة والشهود في خلق القرآن ، وامتناع ابن حنبل من التسليم بذلك والقاء القبض عليه .

ثم انسحب بعد أن دخل العنصر ليأخذ قسطه من الراحة مع أخيه على ضفة النهر ويأكل من رطب جيء به إليهما على عجل . وكان قد أعد غدته ليعود إلى بغداد ، بعد أن تاق إليها وزهد — على حبه للرحلة — فيما اعتاد أن يراه كلما خرج مع الخليفة غازيا أرض الروم أو زائرا الثغور .

إن الشيخوخة تسلمه إلى شيء من الفسور ، ولكنه فتور سرعان ما يزول إذا أطلق لنفسه العنان فاستمع إلى الغناء ، واحتضن القيان ، وأنشد الشعر ، وروى النوادر التي كان يتفنن في عرضها . وربما اضطر أحيانا إلى مخاشنة رفقائه ، وكان هؤلاء يسكتون عنه خشية سلاطته وسرعته إلى التهكم ، سئل أبو هفان ، وقد طال تعريض الجاحظ به « لم لا تهجوه وقد ناد بك وأخذ بمخنقك ؟ » فقال :

— أمثلي يخدع عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة في أرنبه أنفى لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت في ألف سنة .

وقبل أن يموت سهل بن هارون بأيام قال له صديقه مع ابن زياد « يعيبك هذا الجاحظ في المجالس وتسكت عنه ؟ » فقال :

— والله لئن أجبته لجاوز ما أقول المجالس إلى الدفاتر ، فإذن من الشيبة وأضاع الهية .

لكن ماذا يفعل ؟

انه يريد شيئا لم يقدر عليه أحد . ليس للمنصب الرفيع
أطمح ، فأنا لا أزال كما كنت ، وكل ما جد من جالى اليوم أنى
بدأت أخاف . وأعوذ بالله من الضعف وما يجر من المطامع الدنية ،
والهمة القصيرة ، ومن ابتذال الحرية ، وإن نفسى والله أية
ما سقطت وراء همة ، ولا خذلها ناصر عند نازلة ، ولا استرقها
طمع رخيص .

ولكن فى هذه السن .. سنى أنا أطلب الكبير ، فما عساه يكون
ليرضى أمير المؤمنين ويغبط به هذه الطغمة الملتفة حوله ؟ وقبل أن
يأتى الجواب صاح صائح :

— أمير المؤمنين محموم .

وقتل المأمون وهو نصف متيقظ ، وزاره طبيبه المرافق له
— وهو أبو زكريا يحيى بن ماسويه — ووصف الدواء .. ولكن
لم تكد شمس اليوم تغيب حتى كان يلفظ أناسه الأخيرة وهو
يوصى لأخيه المعتصم .

لقد جرى كل شيء بسرعة ، وكان وصول الجاحظ الى
دار السلام يوم مبايعة المعتصم وهو يشعر بمرارة حقيقية ،
ويتوجس خيفة من هذا الخليفة المربوع الذى حمل ذات يوم بابا
من حديد يزن سبعمائة رطل وخمسين ، وقوقه عدل فيه مائتا رطل
 وخمسون . وعندما شغب عليه الجند وقادوا باسم العباس بن
المأمون ود لو تم الأمر للعباس ، ولكن الخليفة الجريء واجه الجند

بابن أخيه فانصاعوا له (٣٤) . وماتت رغبة لم تكد تولد حتى
وئدت مسرعة .

غير أن ما تعاقب من أحداث دل على أنه كان أكثر تشاؤما
مما ينبغي ، بل دل على خطأ التشاؤم بوجه عام . فقد استمر كل
شيء كما كان وإن يكن وزير الفضل بن مروان ، وظلت سياسة
الدولة واتجاهاتها الدينية وقضاياها الفكرية قائمة على القواعد
التي أرساها المأمون . وإذا كان ثمامة بن أشرس قد مات فقد أصبح
رجل القصر أحمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة ، وعلت مكانة
ابن الزياد الذي كان الجاحظ يحله ويروى شعره في مجالسه
الخاصة والعامة .

وقبل أن ينتقل الى سامرا وقعت الجفوة بينه وبين النظام ،
وكان هذا قد بدأ بنفس عليه التفاف الناس حوله ومناقشته آراءه
وتزيده عليها أو انتقاصه منها أحيانا ، وربما شعر بأنه بعد أن تشرب
الاعتزال وحفظ أصوله وشعب فيها وفرع أصبح خطرا عليه
لما يمتاز عنه بنصاعة البيان وسرعة اللسان . والعجيب أنه كان في
الوقت نفسه يشكو « هجر » صديقه له وانصرافه عنه الى فلان
وفلان .

ولا تتحدث المصادر عن حقيقة ما كان بينهما ، غير أننا إذا
تعجلنا وقلنا ان عام ٢٣١ — وفيه مات النظام — لم يكن النهاية
الحقيقية للعلاقة بين الصديقين لم نخطيء ، كما لا نخطيء حين
نزعم أن التناقص القديم الذي خمد سنوات عاد عارما أيام

المعتصم ، وبخاصة عندما أصبح الجاحظ شيخا من شيوخ الاعتزال له مريدوه ، ينتقلون اليه في سامرا حيث يجتمعون به في داره التي كانت تلاصق دار ابن الزيات .

ولكن علاقته بهذا الرجل تلفت النظر ، فقد طغت على كل علاقاته الأخرى ، وربما كانت أحد مبررات شكوى النظام . وكان ابن الزيات نفسه قد وصل بسرعة الى الوزارة — بعد أحمد ابن عمار الذي خلف الفضل بن مروان ، واستقبح منه المعتصم جهله فعزله — من النماذج التي يرتاح اليها الكثيرون . فهو عالم وأديب وشاعر وسياسي ماهر ومفكر طموح ، تولى أولا ما كان يتولاه للمأمون من عمل « الشمس والفساطيط وآلة الجمازات » ثم كتب في القصر مصاحبا لعمر بن مسعدة وابن خاقان وابراهيم ابن العباس ، ولما جاء أبو عثمان المازني بغداد راح يقول كلما اختلف تلاميذه في إحدى مسائل النحو : « ابعثوا الى هذا الفتى الكاتب — ابن الزيات — اسألوه واعرفوا جوابه » .

اننا لا نلبث أن نرى الجاحظ في ركاب ابن الزيات ، حتى في ساعات سخطه ، وكان هو في الواقع حاد المزاج متقلب الهوى ، يرضى فيصل الى أقصى درجات الرضى الكامل ، ويسخط فينتهي به السخط الى الحقد المدمر .

وفي هذه الفترة — بوجه خاص — تمكن من أن يصل الى الشيء الذي لم يقدر عليه أحد ، وطالما بحث هو عنه ، وعرف أنه لا بد أن يكون سفرا عظيما ، يسكت به جماعة الكتاب . وقبل أن

يملى على وراقه « كتاب البخلاء » ملأت الدنيا كتيباته التى اعتاد أن يبعث بها الى معارفه وفيها يثير ما يثير من القضايا وييسط ، ما جعله شيخا للكتاب .

٦ - مدح التجار

— ما رأيك يا أبا عثمان فيما صنع أمير المؤمنين بابن حنبل ؟
وتطلع الجاحظ الى عيني ابن الزيات ؛ كأنه يريد أن يستشف ما وراءهما ، ثم قال :

— لقد أوجع أبا عبد الله قاضى القضاة ، والسعيد يا أبا جعفر من وعظ بغيره .

قال ابن الزيات :

— فأنت اذن كاره اطلاقه واطلاق الهدايا له .

قال الجاحظ :

— بل معجب به ، فانه لما ضرب سوطا قال باسم الله ، وفى الثانى قال : لا حول ولا قوة الا بالله ، فلما ضرب الثالث قال : القرآن كلام الله غير مخلوق وهذه فرية ، فلما ضرب الرابع قال : « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » . ويروون أن تكة سراويله عندما قطعت لم تظهر عورته لأنه رفع رأسه الى السماء وقال : اللهم انى أسألك باسمك الذى ملأت به العرش ان كنت تعلم أنى على الصواب فلا تهتك لى سترى !

قال ابن الزيات :

— مالهذا قصدت يا أبا عثمان ، ولكنى سألت رأيك فيما صنع أمير المؤمنين بأحمد ؟

قال الجاحظ :

— هذه حكاية قديمة يا أبا جعفر .

فقال ابن الزيات :

— انها اليوم تتكرر أو مثلها يحدث ، فما رأيك ؟

فقال الجاحظ :

— أَرْضِي العامة وأغضب متكلميها ، على أنتى أزعِم أنه

على فضله لا يدرى من العلم الا أندره ، وما حمل الناس على القول بخلق كتاب الله الا لأن أخاه رحمه الله أوصى اليه بذلك .

قال ابن الزيات :

— ونفخ به في أذنيه أبو عبد الله وزمرته .

قال الجاحظ :

ان ابن أبى داود على حق .

قال ابن الزيات :

— هو والله من فقهاء السوء .

قال الجاحظ :

— ليس أكثر سوءا من ابن أكرم يا أبا جعفر .

قال ابن الزيات :

— أعرف رأيك فى الحاشية يا أبا عثمان ، وكلهم من جلة

الكتاب ، فلماذا ترفعه عليهم وفيه نعومة الأفعى وبقمه سمها ؟

قال الجاحظ :

أشار على المعتصم بك للوزارة ، فلماذا تنفر منه وتعاديه ،
وتريدنى على أن أتحوّل عنه ؟

فأجاب ابن الزيات بحدة :

— لتحوّله عن الجادة ، وسيفعل بنا الأفاعيل إذا لم نصّده
ونقصده بسهامنا .

قال الجاحظ :

— والله يا سيدى لا أدرى ، ولكنى أنصح بالريث ، وإن
يقظة الفهم للواعظ مما يدعو النفس الى الحذر من الخطأ ،
والعقل الى تصفيته من القذى .

قال ابن الزيات :

— مرحى مرحى .. هذا كل ما نظفر به منك ، ولكنى أطلب
منك الساعة أن تختار واحدا منا ، ووالله من لم يكن من
خاصتى فهو عدوى حتى تقوم الساعة .

فقال الجاحظ بهدوء :

— اتنى أختارك يا أبا جعفر ، ولكنى أزعم لك أنك كثرت
شائتيك ، ومنذ احتجبت دون الناس ولم تأذن للضعيف منهم
حتى ينبسط لسانه تنهشك السنة يعلم الله أنى أريد قطعها
بيدى قبل أن يقطعها سيفك .

قال ابن الزيات

— وماذا تنتظر من طغمة ساءها قعودى هذا المقعد ،
وقالت يتولانا تاجر يبيع الزيت ، وقد ربينا نحن فى الديوان
كما ربى آباء لنا من قبل ، وأمس فقط وصلتى رقعة فيها
هذا الشعر الذى أهجى به قاله ابن أبى دؤاد الكبير :

أحسن من خمسين بيتا سدى جمعك اياهن فى بيت
ما أحوج الناس الى مطرة تذهب عنهم وضر الزيت !
وكان فى مجلس ذم فيه التجارة ، وامتدح أعمال السلطان .

قال الجاحظ :

— فليقل ما شاء أن يقول ، وأما أنا فسأجيب عنه فى كتاب
يصفنا وقد كنت تاجرا أيها الوزير بما نحن أهل له من كريم
الخصال .

وانصرف مسرعا الى داره القريبة وعاد فى الغد ومعه « رسالة
مدح التجار وذم عمل السلطان » ولم يشرع فى قراءتها الا بعد
أن تساءل :

— من فى الديوان يا أبا جعفر ممن تراه جعلته هدفا لى ؟

قال ابن الزيات :

— عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وابننا المدبر ، ومحمد
ابن الفضل الجرجاني ، وابراهيم الصولى ، وابننا وهب
وابن الخصيب ، و

قال الجاحظ : ربما اختلفنا بعض الشيء ، ولم أذكر اسما واحدا على أى حال ، ولكنى وصفت خصومنا بأنهم من حشوة أتباع السلطان ، وسيشعر كل من يقرأ كتابى من المقصود وغير المقصود بما أقول :

وراح يقرأ الرسالة . فاذا ثمة فئة فتقتها الفطنة وأرهفها التأديب تعترف بفضيلة التجار لأن فى محيطها نشأ الاسلام « وقد علم المسلمون أن خيرة الله تعالى من خلقه ، وصفيه من عباده ، والمؤمن على وجه من أهل بيت التجارة ، وهى معولهم وعليها معتمدهم » . وقد كان الرسول نفسه تاجرا ، فعلى أى شيء يعتمد هؤلاء الكتاب وأصفياء الخليفة فى مخاصمتهم لنا ، وهم شعوبية ؟ أعلى الماضى ؟ وهل لم يجدوا فى ماضينا نحن التجار من سبق الى الفضل والعلم والأدب ؟

ومن ناحية أخرى نرى أن أكثر وجوه المعتزلة تجار ، فمحال أن تجد هذه الحاشية فىنا ما يشين ، وما قالت هذه ما قالت الأحسدا وحقدا . مع أن الأولى بها أن تكون أحرص على الصلح بين الناس ، مادامت تتولى أمر الناس .

٧ - الوراق

بعد هذا الكتاب اشتدت ضراوة الحاشية وزاد كيدهم ، وأثيرت العصبية على نطاق جمع وجوه القوم وعامتهم . ولكن ابن الزيات كان من القوة بحيث مضى فى طريقه لا يلوى على

شيء ، وأتاح للجاحظ الفرص فكتب « فضل هاشم على عبد شمس » و « كتاب أخلاق الملوك » ليجنب الخليفة وآله مآثر شنه المعركة . وفي الوقت نفسه جمع اليه قواد الترك ليجعل معظم رجال الجيش خارج الصراع الفعلى ، فألف « كتاب مناقب الترك وعامة جند الخلافة » منها الى أن هذا الجنس أصبح قوة يحسب لها ألف حساب ، وبخاصة بعد أن أقصوا عن بغداد وكونوا طبقة تمتاز بالقوة والصرامة والجرأة ، ولا تعرف « الملق ولا الخلافة » ، ولا النفاق ولا السعاية ، ولا التصنع ولا النميصة ، ولا الرياء ولا البذخ على الأولياء ، « ولا البغى على الخلفاء » وهذه كلها صفات معروفة في عمال الدولة وكتابها وأمرائها من غير بنى هاشم .

ولما كانت ماردة أم المعتصم تركية ، وكان هو يميل بهواه الى الترك فقد حرص الجاحظ — وكأنه أحس أن الكتاب لابد واصل لأمير المؤمنين — على أن لا يذكر سوى فضائلهم . وأما نقاط الضعف ومواطن الغمز ، فقد ضرب بها عرض الحائط ، مذكرا اياه في الوقت نفسه بضرورة التنبيه اليهم وبما ينبغي أن يكون عليه موقفه ازاء سائر الأجناس « من الحلم في موضع الحلم ، والعفو في موضع العفو ، والتغافل في موضع التغافل ؛ درأ للفتنة واشارا للسلامة » .

واذ أصبح ابن الزيات في مأمن من الغارة راح يضرب بعنف وبلا شفقة حتى أصبح يردد بين حين وحين « الرحمة خور في

الطبيعة » . وجعل تنورا من حديد وبه رؤوسها الى الداخل
يعذب فيه من يقع به ، متذعرا بأنه لا يفعل ذلك الا ليحفظ
للدولة كيائها وهيبتها .

وبلغت به الجرأة حداً كان يراجع فيه الخليفة . ولقد طلب
اليه ذات يوم أن يعطى ابنه هارون الواثق عشرة آلاف ألف
درهم يستعين بها على أموره ، فدافعه مدافعة متصلة أحوجته الى
أن شكاه لأبيه المعتصم ، فأنكر هذا عليه تأخير المال فقال :

— يا أمير المؤمنين ، العدل أولى بك وأشبه بعقلك ، ولك
عدة أولاد ، أنت في أمرهم بين خلتين : اما أن تسوى بينهم في
العطية فتجحف بيت المال ، واما أن تخص بعضهم فتخيف
على الباقيين .

فقال له :

— قد رهننت لساني بشيء ، فماذا أصنع فيه ؟

قال :

— تأمر لباقي أولادك بأشياء أخر من اقطاعات وصلات ،
وتطلق لهارون صدرا من المال وتدافعه بياقيه ، وتتسع أنت
قليلا ، وتدبر الأمر بعد ذلك بما يراه أمير المؤمنين .

فقال له :

— وفقك الله ، فما زلت أتعرف الخيرات في رأيك والسداد

في مشورتك !

وتأدى الخبر للجاحظ ، فقال :

— أظن هارون يسكت ؟

فأجاب :

— بلغنى أنه قال : ان أفضيت الخلافة قتلنى الله ان لم
أقتله .

فتساءل الجاحظ :

— وماذا أعددت لهذا الأمر ؟

أجاب :

— فى بنى هاشم من هو أولى منه بهذا الأمر يا أبا عثمان .

ولكن الأيام لم تمهل أحدا ، فمات المعتصم وبويع لهارون
الواثق فى اليوم نفسه الذى ودع فيه أبوه الدنيا ، وكان ذلك
لاحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين .
وكان أحمد ابن أبى دواد وراء البيعة ، فأثر ابن الزيات أن
يختفى . ولكن حاجة البلاد اليه أبقت عليه ، فقد استدعاه الخليفة
الجديد ، ولما مثل بين يديه قال لمولاه وصيف .

— امض الى دايتى وقل لها توجه الى بالدرج الذى
كلمتها فيه .

فمضى وصيف فوافى بالدرج ففتحها ، وأخرج رقعة دفعها
الى ابن الزيات فقرأها . واذا فيها بخط يده حلف بعق عدة

من عبيده ، وحبس عدد من خيله ، وبوقف عدة ضياع ، وبصدقة
مال جليل أنه اذا ظفر بأبن الزيات قتله ، ولهث الوزير ، ثم قال :

— يا أمير المؤمنين أنا عبد من عبيدك ، فان وفيت يمينك
فأنت محكم ، وان عفوت وصفححت كان أشبه بك .

فنهض الوراق بجسمه العريض الطويل ، وربت عليه قائلاً :

— لا والله لا يمنعني من الوفاء يميني الا النفاسة أن يخلو
الملك من مثلك .

وأمر بعق العبيد الذين حلف بعقهم وبوقف الضياع وحبس
الخيول وصدقة المال ، فكان هذا مازاد في بطش ابن الزيات .
وأخذ ينكل بالكتاب والمستوزرين من أمثال سليمان بن وهب ،
وأحمد بن الخصيب ، وإبراهيم بن العباس الصولى ، وقد قال
هذا الأخير :

ايه أبا جعفر وللدهر كر	ات وعما يريب متسع
أرسلت ليثا على فرائسه	وأنت منها فانظر متى تقع
لمظته قوته وفيك له	اذ تقضت أقواته شبع

ومن ناحية أخرى جعل أحمد بن أبى دؤاد يغرى الوراق
بالايقاع بهذا الطاغية ، وأمر الشاعر على بن الجهم ، فقال فيه
أرجوزته :

هارون يا ابن سيد السادات
أما ترى الأمور مهملات
تشكو اليك عدم الكفاة

ولقد هم الواصل بالقبض عليه ، ولكن عامله اسحاق ذكر
للجاحظ أنه قال له :

— أمثل ابن الزيات مع خدمته وكفايته يفعل به هذا ،
وما جنى عليك ولا خانك ، وانما ذلك على خونة أخذت ما اختانوه،
فهذا ذنبه ؟

قال الواصل :

— لقد طغى حتى انه ليتحدث فى ولاية عهدي بما لا أحب .
قال اسحاق :

— ليس ينبغي يا أمير المؤمنين أن تعزل أحدا حتى تعد لمكانه
جماعة يقومون عليه ، فمن لك بمن يقوم مقامه ؟ ان كان لا بد لك أن
تفعل شيئا ، فأصلح بينهما !

قال الخليفة :

— من هما ؟

فأجاب اسحاق :

— الوزير وقاضى القضاة !

كل شيء اذن كان مهينا لكى يكتب الجاحظ ، ولكن أسلوب ابن الزيات لم يعجبه على الاطلاق ، ولا سيما بالنسبة لموقفه من ابن المدبر وابن العباس الصولى ، ومن ناحية أخرى كان يحرص على التمسك بصداقة أحمد بن عبد الوهاب المتعالم ، وابن الجهم المتشاعر . ولعله آلمه أن يقبض عنه يده شيئا فى أيامه الأخيرة على الرغم من أنه جعل له فى البصرة ضيعة كبيرة مساحتها أربعمائة جريب سميت « الجاحظية » والغريب أنه كان يلح عليه أن يكتب أشياء عن البخلاء .

فى هذه الآونة كتب الجاحظ « رسالة الجد والهزل » بعد أن جفاه ابن الزيات ، أو بعد أن كان يتعمد تغافله بصورة جعلته أشبه بالاهمال الذى يورث الاغفال ، مما دفع بالجاحظ الى أن يترك سامرا وبغداد ويلزم الجاحظية معلما وراوية وشيخا كبيرا .

وفى الرسالة يصرح بأن ما بينهما لا يمكن أن يكون قطيعة . حقا هناك خلاف ، ولكنه خلاف قائم على أن ابن الزيات صاحب نتاج وصناعته جودة الخط ، وهو صاحب كلام وصناعته جودة المحو .

وابن الزيات كاتب خراجى زرعى ، وهو أمدى عشرى فخلى ، وقد «بلغ الآن من جرمى فى مساواتك فى خبز الخشكار ، وإيثارى الباقلى ، والمعرفة بتقدير المدن ، وأجراء القنى ، أن أنفى من جميع

الأرض ، وأن تجعل في دمي الجعائل ، فاني قد هجرت الخبز البتة الى مواصلة التمر ، ونزلت الوبر بدلا من المدر » .

لم يقيم عدااء حقيقي ، ولكن الجاحظ أثر العزلة ، وكأنه أحس أنه أشرف على النهاية . غير أنه كان يأخذ الأمور من وجهها الضاحك ، أو لعله وجد أن خير ما يواجه به الأمور هو أن يسخر منها . وقد انتهز فرصة مرور أحمد بن عبد الوهاب على البصرة في طريقه الى الحج سنة ٢٣١ — وكان في حاشية جعفر بن دينار أحد قواد الأفشين في حرب بابك — فالتحم معه في ملاحاة كلامية خاشنه فيها ، وكان من نتائجها « رسالة الترييع والتدوير » وفيها جماع رأيه فيه وفي أمثاله الذين طالوا ضايقوه وضيقوا عليه ، وفي ذات الوقت تتضمن فلسفته وثقافته ونظيرته الى الحياة . فأحمد بن عبد الوهاب من الرافضة المشبهة — ويبدو أنه استأثر بما كان له عند ابن الزيات بعد فراقه — وهو على صلفه وفي بحره الطامى من التيه لا يعرف من أمور الدنيا شيئا ، ولا يفقه في العلم ، ويدعى الحكمة وقول الحق والصواب ، مع أن « الخطأ كثير غامر ، ومستول غالب ، والصواب قليل خاص ومقموع مستخف »

أحمد بن عبد الوهاب هذا مفرط القصر ويدعى أنه مفرط الطول ، وهو مربع حتى لتحسبه لسعة جفرتة واستفاضة خاصرته مدورا . ثم هو جعد الأطراف قصير الأصابع ، ومع ذلك يزعم السبابة والرشاقة ، وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعى أنه طويل الباد رفيع العماد ، عادي

القائمة عظيم الهامة ، قد أعطى البسطة في الجسم والسعة في العلم ، وكان كبير السن متقادم الميلاد ، وهو يدعى أنه معتدل الشباب حديث الميلاد » .

والجاحظ على أى حال لا يرى حقيقة أن خصمه على هذه الدرجة من التشويه الخلقى ، ولكنها السخرية والرغبة في التهمك والولع بالجدل والسفسطة . وما كان له بعد ذلك أن يغمض عينيه عن تشويه عقله بالقاء الأسئلة أمامه وتركها بدون جواب ، عارضا لقضية أصل الانسان وما بينه وبين القرد من تشابه ، ومتكلما عن نظرية اللون ومشكلة انتقال الصوت وعمليتى المد والجزر وأثر القمر فيهما ، وما استفاض من أخبار بعيدة غريبة كأنها الأساطير .

وعلى هذا النحو يقمع وراء هذا المتعالم الصفيق ، ويظهر هو مرنا للغاية ، قادرا على أن يصول ويجول متمكنا من أن يتسع بالحوارين العقلى والنفسى اتساعا شديدا . فاذا هو يقف تارة في جانب القصر يحتج له ، وتارة أخرى يقف في جانب الاعتدال ، ثم قد يحتج للطول ويدلى في احتجاجه بمختلف البراهين . وفي كل ذلك يمد خصمه ويطويه ، ويبسطه ويبعجه ويدوره ، ويتركه في آخر الأمر مسخا مضطربا مخطئا لا هو انسان ولا هو حيوان ، ولا يفكر ، ولا يحس . وليس في ذلك أى عجب ، لأن العيون تخطيء والحواس تكذب » وما الحكم القاطع الا للذهن وما الاستبانة الصحيحة الا للعقل » وهذه أشياء افتقدها ابن عبد الوهاب :

« الناس وان قالوا في الحسن كأنه طاقة ريحان ، وكأنه خوط
بان ، وكأنه قضيب خيزران ، وكأنه غصن بان ، وكأنه رمح رديني ،
و كأنه صفيحة يمانية ، وكأنه سيف هندواني ، وكأنها جان ، وكأنها
جدل عنان .. فقد قالوا كأنه المشتري ، وكأن وجهه دينار هرقلي ،
وما هو الا البحر ، وما هو الا الغيث ، وكأنه الشمس ، وكأنها
دائرة القمر ، وكأنها الزهرة ، وكأنها درة ، وكأنها مهاة ! فقد تراهم
وصفوا المستدير العريض بأكثر مما وصفوا به القضييف والطويل ،
وقلت : وجدنا الأفلاك وما فيها ، والأرض وما عليها ، على التدوير
دون التطويل ، وكذلك الورق والتمر والحب والتمر ! وقلت :
والرمح ان طال فان التدوير عليه أغلب لأن التدوير قائم فيه
موصولا ومفصلا ، والطول لا يوجد فيه الا موصولا ، وكذلك
الانسان وجميع الحيوان ! وقلت : ولا يوجد التريب الا في
المصنوع دون المخلوق ، وفيما أكره على تركيبه دون ما خلى
وسوم وطبيعته ، وعلى أن كل مربع ففى جوفه مدور . فقد بان
المدور بفضله ، وشارك المطول فى حصته . ومن العجب أنك تزعم
أنك طويل فى الحقيقة ، ثم تحتج للاستدارة والعرض ، فقد
أضربت عما عند الله صفحا ، ولهجت بما عند الناس » .

٩ - كتاب البخلاء

وفى البصرة ترامت اليه الأخبار ، فلا يزال الكتاب
والمستوزرون يشنعون عليه ، وابن الزيات — على ما ذكر له
ابراهيم بن السندی بن شاهك الذى يزوره — ودع الأدب الى

تعقب الخصوم ، ولم يعد يتذاكر مع غيره الا عيوبه فيما ألف ،
وأما رسالة الترييع والتدوير فلم تفعل أكثر من اثاره الغيظ
والحسد .

وعندما قيل له : ان الحسن بن وهب كاتب ابن الزيات سعى
لأبى تمام حتى وافق ابن الزيات على أن يوليه بريد الموصل ،
قال :

— لا يزال الشعر عنده بخير والله الحمد .

فقد أحس أنه يحبه عندما راح ابن السندی ينشده شعره .
غير أنه فجع عندما وصل البريد في اليوم التالي بموته وهو لم يزل
في الأوج ، وبعدها بيوم واحد جاءه نعى صديقه ابراهيم النظام ،
فاستقبله بالصبر الجميل وقال :

— بدأت والله مهمتنا في الكلام .

ولكنه كان قد شرع في املاء وراقه أشياء عن البخلاء ، وقرر
ان أتمه ليخرج به الى الوزير فنال الجائزة منه أو الموت . وكان
عزمه على أن يقدم شيئاً لم يقدمه أحد أو لم يقدر عليه أحد حافزاً
الى أن يتكىء على نفسه ، وان يكن اعتمد أخباراً كثيرة حفظها في
أوراقه . فراح يولد الأقوال ، ويضع الأحاديث ، ويفتن في ذلك
شتى الأفانين . وعلى ما فعل في « الترييع والتدوير » وفي أكثر
كتبه أخذ يحتج ، ويسوق الروايات على لسان بعض من عرفوا
بالبخل ممن عرفهم كسهل بن هارون والأصمعي والكندى

والثورى والمروزيين . وحرص تماما على الذهاب بحججه مذاهب مختلفة ، فهو يسوقها مرة ، مساق الجد — وان شأبتها السخرية — ومرة أخرى يزجى بها فى تهكم مرير .

وبين الأحاديث المسهبة ، والرسائل الطويلة والنوادر المقتضبة ، والقصص الطريفة — حرصا على استجلاب الرغبة ودفعاً للسأم والملل — عاش أياما نسى فيها موت ابراهيم ، وأسف المعتزلة عليه ، ثم أعلن أنه أتم الكتاب ، وقد استدعى كاتبه بعد يوم راحة وقال له :

— أما وقد اتهمنا من الجسم ، فلنجعل الوجه جميلا ، اكتب يا أبا يحيى : تولاك الله بحفظه ، وأعانك على شكره ، ووفقك لطاعته ، وجعلك من الفائزين برحمته !

وتوقف قليلا وابتسم ، لكنه راح يقدح زناد فكره . أى شىء كان بينهما ؟ وماذا كان يقول له عندما كانا يتذاكران ملح الحرامى ، ويقرءان كلام سهل بن هارون ، ويتناقشان فيما ألف عن سراق الليل ولصوص النهار ؟

— ذكرت حفظك الله أنك قرأت كتابى فى تصنيف حيل لصوص النهار ، وفى تفصيل حيل سراق الليل ، وأنت سددت به كل خلل ، وحصنت به كل عورة ، وتقدمت بما أفادك من لطائف الخدع ، ونبهك عليه من غرائب الحيل فيما عسى أن لا يبلغه كيد ولا يجوزه مكر ، وذكرت أن قدر نفعه عظيم ، وأن التقدم فى درسه واجب .

ومرة أخرى توقف .. فالإنسان مجبر على أن يقول الحق ،
وماذا اذا اعترفت فأرضيت نفسى وأشبعت غروره ، اكتب
يا أبا يحيى أم قد تعبت وأخذتك الشيخوخة :

— وقلت اذكر لى نواذر البخلاء واحتجاج الأشحاء وما يجوز
من ذلك فى باب الهزل ، وما يجوز منه فى باب الجد ، لأجعل
الهزل مستراحا والراحة جماما . فان للجد كذا يمنع من معاودته ،
ولا بد لمن التمس نفعه من مراجعته .. وذكرت ملح الحرامى ،
واحتجاج الكندى ، ورسالة سهل بن هارون ، وكلام ابن غزوان ،
وخطبة الحارثى ، وكل ما حضرنى من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم ،
ولم سموا البخل اصلاحا والشح اقتصادا ، ولم حاموا على المنع
ونسبوه الى الحزم ، ولم نصبوا للمواساة وقرنوها بالتضييع ،
ولم جعلوا الجود سرفا والأثرة جهلا ، ولم حكموا بالقوة لمن
لا يميل الى ثناء ولا ينحرف عن هجاء .. بالله توقف يا أبا يحيى ،
ولكن أليس هو هكذا ؟ هو من الذين يحكمون بالقوة ويهجو
ويغيظ .. أكمل يا رجل ! ولم احتجوا لظلف العيش على لينة ،
ولمره على جلوه ، ولم لم يستحيوا من رفض الطيبات فى رحالهم ،
مع استهتارهم بها فى رحال غيرهم ، ولم تتايعوا فى البخل ، ولم
اختاروا ما يوجب ذلك الاسم مع أنفقتهم من ذلك الاسم ، ولم
رغبوا فى الكسب مع زهدهم فى الانفاق ، ولم عملوا فى الغنى عمل
الخائف من زوال الغنى ، ولم يفعلوا فى الغنى عمل الراجى لدوام
الغنى ، ولم وفروا نصيب الخوف وبخسوا نصيب الرجاء ، مع

طول السلامة وشمول العافية ، والمعافى أكثر من المبتلى ، وليست الفوائد أقل من الحوائج . بل كيف يدعو الى السعادة من خص نفسه بالشقوة ، فكيف ينتحل نصيحة العامة من بدأ يغش الخاصة ؟

لنتمهل يا أبا يحيى ، فقد توردنا العجلة موارد الهلاك .. لا تتحدث ، دعنى أفكر .. اكتب الآن :

— ولم احتجوا مع شدة عقولهم لما أجمعت الأمة على تقييحه ، ولم فخروا مع اتساع معرفتهم بما أطبقوا على تهجينه ، وكيف يظن عند الاعتدال له ويتغلغل عند الاحتجاج عنه الى الغايات البعيدة والمعانى اللطيفة ، ولا يظن لظاهر قبحه وشناعة اسمه وخمول ذكره وسوء أثره على أهله ؟

ان هذا يرضينى يا أبا يحيى ، وقد أثير به من أثير ، ولكن هل تطول الحياة أكثر من هذا ؟ اكتب يا حبيبى :

— وكيف وهو الذى يجمع له بين الكد وثقل المرزئة وبين السهر وخشونة المضجع ، وبين طول الإغتراب وطول قلة الانتفاع ، ومع علمه بأن وارثه أعدى له من عدوه وأنه أحق بما له من وليه ؟ أو ليس هو أظهر الجهل والغاوة واتحل الغفلة والحماقة ثم احتج لذلك بالمعانى الشداد وبالألفاظ الحسان وجودة الاختصار ، وبتقريب المعنى وبسهولة المخرج واصابة الموضع ، فكان ما ظهر من معانيه وبيانه مكذبا لما ظهر من جهله ونقصانه ؟ ولم جاز أن يبصر بعقله البعيد الغامض ، ويغنى عن القريب الجليل ؟

ونفض الجاحظ فألقى نظرة على الصفحة ، ونصح بالإنابة
وتجويد الخط ، ثم عاد فجلس فاشطأ الى الاملاء . فذكر أن
الوزير طلب منه أن يبين له ما الشيء الذي خبل عقولهم وأفسد
أذهانهم ، كما أراد أن يسمع شيئا عن « علة خباب في قعي الغيرة »
و « علة الجهجاء في تحسين الكذب » و « مذهب صحصح في
النسيان » ولولا أنك تجد هذه الأبواب وأكثر منها مصورة في
كتابي الذي سميته كتاب المسائل لأتيت على كثير منه في هذا
الكتاب ، فأما ما سألت من احتجاج الأشعاع ونوادر أحاديث
البخلاء فسأوجدك ذلك في قصصهم ان شاء الله مفرقا وفي
احتجاجاتهم مجبلا ، فهو أجمع لهذا الباب من وصف ما عندي
دون ما انتهى الى من أخبارهم على وجهها ، وعلى أن الكتاب
يصير أقصر ويصير العار فيه أقل .

وسكت مليا ، ثم استطرد :

— ونبتديء برسالة سهل بن هارون ، ثم بطرف أهل
خراسان لاكثر الناس في أهل خراسان ، ولك في الكتاب ثلاثة
أشياء : تبين حجة طريفة أو تعرف حيلة لطيفة أو استفادة نادرة
عجيبة ، وأنت في ضحكك منه اذا شئت وفي لهو اذا مللت الجد .

ان ابن الزيات صارم دائما ، وهو من أجل ذلك في حاجة الى
أن يخفف عنه بالضحك . واذا كان من حقه أن ينقد الكتاب
— وهو لا يستر عنه عيبه — فليس له أي حق في انتقاصه « ولولا

أنك سألتني هذا الكتاب لما تكلفته ولما وضعت كلامي موضع
الضيم والنقمة ، فان كانت لائمة أو عجز فعليك وان كان عذر
فلي دونك » .

١٠ - على حافة الهاوية

عندما دخل الجاحظ سامرا عرف أن الواثق مات ، وهرع الى
دار ابن الزيات مسلما مستسلما فوجده مشغولا في اختيار من
يخلف الامام الراحل . وعلم أنه يريد أن يبايع الناس لابنه محمد ،
وفعلا طلب الدراعة السوداء والقلنسوة له ، ولكن ابن أبي دؤاد
أصر على أن يلي الخلافة أخوه جعفر المتوكل .

كان ذلك يوم الأربعاء لست بقين من ذي الحجة سنة اثنتين
وثلاثين ومائتين ، وشهد الجاحظ بعينه كيف أحضر المتوكل
ليقوم اليه أحمد بن أبي دؤاد في آل عباس ، ويلبسه الطويلة
ويعلمه ثم يقبله بين عينيه ، ويقول وابن الزيات يتميز غيظا :

— السلام عليك يا أمير المؤمنين .

وتطلع نحوه المتوكل بسخنته السمراء وعينه الكيرتين ،
وقال :

— وعليك وعلى المسلمين السلام .

وفي الطريق الى الدار قال ابن الزيات للجاحظ :

— أتدري لماذا استوزرني أمير المؤمنين ؟

أجاب :

— ومن غيرك يصلح للوزارة ؟

قال :

— ابراهيم بن العباس والجرجرائى وابن خاقان وايتاخ ،
ولكن أتدرى لماذا اختارنى ؟

فهز الجاحظ رأسه نضيا ، فقال ابن الزيات :

— ليوقع بى بعد اذ يبين للناس أنى أخطأت وهو خليفة ،
ويبنى وبينه وهو أمير من أسباب القطيعة ما يكفى لقتل أمة ،
ولكن دعنا نعش يومنا يا أبا عثمان ولنقرأ كتابك .

وكانت الأيام التالية حزينة ، وان يكن الوزير لم يخف فرحه
بالكتاب ، وبعد أربعين يوما دخل ايتاخ على ابن الزيات فى داره
— وكان معه الجاحظ يذكره الروايات — ليقول ان الخليفة بعث
فى طلبه ، ولم يمض الا قليل بعد خروجهما حتى عاد ايتاخ فى ثمر
من الشرط وكبسوا الدار ونهبوها ، وساقوا أمامهم من فيها من
غلمان وجوار ودواب ، وقد فر الجاحظ قافزا من فوق سور
القصر الى بيته المجاور وهو يصرخ ويده فوق ساقه :

— انها النهاية والله !

وقد أفتق فى بيته أياما مستخفيا علم خلالها أن قاضى القضاة
ابن أبى دؤاد هو الذى حرض على ابن الزيات . وطالب بتعذيبه
متهما اياه بالكفر وعدم القول بخلق القرآن وعطفه على ابن حنبل
وصحبه ، فأدخل التنور الذى صنعه هو لخصومه ، وكان عندما
يطلب الرحمة يقول الموكل بتعذيبه :

— الرحمة خور في الطبيعة أيها الوزير !

وكان محمد بن الفضل الجرجاني قد ولي الوزارة ، فتعقب أصحاب ابن الزيات بعد موته ، ومن ورائه ابن أبي دؤاد يشجعه ويدله عليهم واحدا واحدا . فما كان من الجاحظ الا أن خرج من مخبئه قاصدا الى البصرة ، ولكن قبض عليه ، وأدخل على أحمد ابن أبي دؤاد مقيدا بقيود ثقيلة . فرآه في جمع من أصدقائه تبين فيهم ابنه أبا الوليد محمدا ، واسحاق الموصلی ، وأبا العيناء ، ومحمد بن منصور ، وكانوا يضحكون . ولم يكذ يلق بالتحية في صوت واهن راعش حتى سئل :

— ولم هربت ؟

فأجاب :

— خفت أن أكون ثاني اثنين اذ هما في التنور :

وقال قاضي القضاة :

— وما علمتك الا متناسيا للنعمة ، كفورا للصنيعة ، معددا

للمساوىء !

قال الجاحظ :

— قد تصلحني الأيام يا أبا عبد الله .

فقال :

— والله لا تصلح منك ؛ لفساد طويتك ، ورداءة داخلتك ،

وسوء اختيارك .

قال الجاحظ ، وقد بدأ يتماسك :

— خفض عليك أيدك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لى عليك ، ولأن أسىء وتحسن أحسن عنك من أن أحسن فتسىء ، وأن تغفو عني في حال قدرتك أجمل من الانتقام منى .

قال ابن أبى دؤاد :

— قبحك الله ، ما علمتك الا كثير تزويق الكلام ، وقد جعلت لسانك أمام قلبك ، ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر ، ما تأويل هذه الآية « وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد » ؟

قال :

— تلاوتها تأويلها أعز الله القاضى .

فتفكر ابن أبى دؤاد ساعة ثم قال :

— جيئوا بحداد .

فصرخ الجاحظ :

— أعز الله القاضى ليفك عني أو ليزيدنى ؟

فقال :

— بل ليفك عنك .

وتنفس الجاحظ الصعداء ، فلما جاء الحداد وبدأ عمله غمزه اسحاق الموصلى أن يعنف بساقه ، ويطيل أمره قليلا ، ولكن آلام

القيد — ولا سيما على ساقه التى أوجعته يوم قفز سور ابن
الزيات — كانت فادحة ، فما أسرع ما رفع كفه ولطم وجهه ،
وهو يقول :

— اعمل عمل شهر فى يوم ، وعمل يوم فى ساعة . وعمل
ساعة فى لحظة ، فان الضرر على ساقى وليس بجذع ولا ساجة .
فضحك أهل المجلس ، بينما التفت القاضى الى ابن منصور
قائلا :

— أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه .
قال الجاحظ وهو يتحامل على نفسه واقفا :
— كنت أعلم أنك لن تأخذ الصديق يا أبا عبد الله !
وقال ابن أبى دؤاد لعلامه :

— صر به الى الحمام ، وأزل عنه الأذى ، واحمل اليه تخت
ثياب وطويلة وخفا .

فلبس ذلك ، ثم رجع فتصدر المجلس ، وهنا قال القاضى
بمرح :

— هات الآن حديثك يا أبا عثمان .

قال الجاحظ :

— ان كان لابد فاجعله ايجابا على بشرك ودعنى أبسط
لسانى بتقريظك بكتاب حررته لابنك أبى الوليد قبل الغمة ،
وحفظته حتى يقضى الله أمره .

قال ابن أبي دؤاد :

— فيم يا حبيبي ؟

قال :

— في الفتيا !

قال :

— فقد كنت تراجعہ اذن ؟

أجاب :

— بل أراجع اختلاف الناس في الأصول التي عليها اختلفت
الفروع وتضادت الأحكام .

١١ - جائزتان

هذه الغبطة لم يطل أمدها ، بل لعلها لم تجاوز ذلك المجلس
قط . وبدا الجاحظ بعد ذلك كئيبا متهافت الأطراف ثقيل احدى
الساقين متخاذل النفس حتى كأنه ممرور محترق أو ممرور ملتهب ،
الا أنه لم يعف نفسه من الكتابة . وبلغ من اصراره على البقاء
أن راح يتندر بالأطباء الذين كانوا يعودونه — وعلى رأسهم يحيى
ابن ماسويه وسلمويه — ويصفون له الدواء ، وقال لابن أخته
يموت بن المزرع وهو يدلك ساقه :

— قتلوا المأمون بدوائهم مع أنه بشم من الرطب ، ولما اغتل
الواثق علة الموت داووه على أنه يعيش من يومه خمسين عاما ،
فهلك بعد عشرة أيام !

وبعد أيام خرج بكتابه « تقض الطب » زلزل به العلاقة بينه وبين أطباء العصر كله . ووافق ذلك اعتلال قاضى القضاة ، وكان كتب له يسترضيه مرات ، ويذكره بأن من عاقب فقد أخذ حظه ، ولكن الأجر فى الآخرة وطيب الذكر فى الدنيا على قدر احتمال العفو .

هى نفس المرء على أى حال ، يغريها الجاه ويبعدها عن الأصفياء . تحسب أن التواضع اذا كان من التلاد عند فئة فهو مستطرف منها ، وأرجو يا أبا عبد الله الا أن تكون كمثل عيسى ابن مريم عندما قيل له « ما رأيت كاليوم كلما أسمعوك شرا أسمعتم خيرا » فقال « كل امرئ ينفق مما عنده ، وليس فى أوعيتكم الا الخير والرحمة » .

ولماذا تزور عنى وكنت صفيك وأنا صديق ابنك ؟

الأنى على ما ترى من ضعف البنية وتيبس النفس ؟ لكن من فى مجالسك يفضلنى حديثا ويسبقنى فكرا .. خذ هذا شعرا ، وان لم أكن يوما شاعرا :

لا ترانى وان تناولت عمدا بين صفيهم وأنت تسير
كلهم فاضل على بمال ولسانى يزينه التعبير
فاذا ضمنا الحديث وبيت فكأنى على الجميع أمير

ولكن الفالج دهم قاضى القضاة فكان مبررا كافيا لكثير مما جاء فى « كتاب تقض الطب » . ولم يتوجس الجاحظ طويلا لأن المتوكل

أسند كل ما كان يتولاه للدولة من قضاء القضاة وولاية المظالم الى ابنه أبى الوليد محمد . حدث هذا فى جمادى الآخرة من سنة ٢٣٣ وفى الأيام الأولى من رجب استدعاه أبو الوليد وصحبه الى المتوكل ليقوم بتأديب ابنه محمد المنتصر .

وكانت مقابلة لا ينساها ، فلقد استبشع الخليفة منظره — فهم الجاحظ ذلك تماما — وان يكن راح يحمل على الشيخوخة ، ويقول :

— لقد ضجرت من المشايخ ، وأريد أحداثا يعملون لى .

وأمر وصيفا التركي فصرف له عشرة آلاف درهم أفرحته بقدر ما تألم ، وفى الطريق الى داره لقي محمد بن ابراهيم المصعبى ، وهو يريد الانصراف الى بغداد فعرض عليه الخروج معه والانحدار فى حراقة .

وكان من العبث أن يرفض ، فضلا عن أنه كان يحس أن سامرا لم تعد مناسبة له تماما . فركب فى الحراقة ، حتى اذا انتهت به الى فم نهر القاطول نصب المصعبى ستارة ، وهو يقول :

— لنخفف عنك الآن يا أبا عثمان .

وأمر بالغناء فاندفعت عوادة تقول :

كل يوم قطيعة وعتاب	ينقضى دهرنا ونحن غضاب
ليت شعرى أنى خصصت بهذا	دون ذا الخلق أم كذا الأحباب

وسكتت ، فأمر الطنبورية فغنت :

وارحمتا للعاشقين ما ان أرى لهم معينا
كم يهجرون ويصرمو ن ويقطعون فيصبرونا
فقلت لها العوادة :

— فيصنعون ماذا ؟

أجابت :

— هكذا يصنعون !

وضربت بيدها الى الستارة فهتكتها وبرزت كأنها فلقة قمر ،
وما كان منها الا أن ألقت نفسها في الماء . وعلى رأس محمد بن
ابراهيم غلام وسيم بيده مذبة ، فأتى الموضع الذى تضطرب فيه
الجارية ، وأنشد :

أنت التى غرقتنى بعد القضا لو تعلمينا

واندفع فى أثرها ، فأدار الملاح الحراقة فاذا هما معتقان قليلا ،
ثم غاصا بعد ذلك الى الأبد فارتاع الجميع . وكان المصعبى أشد
القوم جزعا حتى ان الجاحظ نسي أشجانه على الشايبين فى غمرة
حزنه ، فلما قال له :

— يا عمرو ، لتحدثنى حديثا يسلىنى عن فعل هذين

والا ألحقك بهما !

لم يجد كبير عناء فى التماس العذر له . وحضره حديث يزيد
ابن عبد الملك وقد قعد للمظالم يوما وعرضت عليه الرقاع ، فمرت

به رقعة فيها : ان رأى أمير المؤمنين أن يخرج الى جاريته «صباح»
حتى تغينى ثلاثة أصوات فعل . فاغتاظ يزيد من ذلك ، وأمر من
يخرج اليه ويأتيه برأسه . ثم أتبع الرسول رسولا آخر يأمره
أن يدخل اليه الرجل ، فأدخله ، فلما وقف بين يديه قال له :

— ما الذى حملك على ما صنعت ؟

قال :

— الثقة بحلمك والاتكال على عفوك .

فأمره بالجلوس حتى لم يبق أحد من بنى أمية الا خرج ،
ثم أمر فأخرجت الجارية ومعها عودها فقال لها الفتى :

— غنّ :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل

وان كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

فغنته ، فقال له يزيد :

— قل !

فقال الفتى لصباح :

— غنّ :

تألق البرق نجديا فقلت له يا أيها البرق انى عنك مشغول

فغنته ، فقال له يزيد :

— قل !

فقال الفتى :

— يا مولاي تأمر لى برطل شراب .

فأمر له بما طلب ، فما استتم شربه حتى وثب قائما ، وصعد على أعلى قبة ليزيد ورمى بنفسه فمات ، فقال يزيد :

— انا لله وانا اليه راجعون ، أترأه الأحق الجاهل ظن أنى أخرج اليه جاريتى وأردها الى ملكى ؟ يا غلمان خذوها بيدها واحملوها الى أهله ان كان له أهل ، والا فيبيعوها وتصدقوا بثمنها . فانطلقوا بها الى أهله ، فلما توسطت الدار نظرت فرأت فى الوسط حفيرة أعدت للمطر ، فجذبت نفسها من أيديهم وهى تنشد :

من مات عشقا فليمت هكذا لا خير فى عشق بلا موت
وألقت بنفسها فى الحفرة على رأسها فماتت !

ابك أيها الأمير فأنا أزعم أن البكاء صالح للطباع ، ومحمود المغبة اذا وافق الموضع ولم يجاوز المقدار ، ولم يعدل عن الجهة .
ابك ، فالبكاء دليل على الرقة والبعد من القسوة ، وربما عُدَّ من الوفاء ، وشدة الوجد على الأولياء .

ابك ، فالبكاء من أعظم ما تقرب به العابدون واسترحم به الخائفون ..

لقد كتبت ذلك لو كنت تقرأ ، وكتبت أيضا : أن بعض الحكماء

قال لرجل اشتد جزعه من بكاء صبي له « لا تجزع فانه أفتح لجرمه وأصح لبصره » وضرب عامر بن قيس يده على عينه ، فقال « جامدة شاحصة لا تندى ! » .

ونھض محمد بن ابراهيم وقد خفف عنه ، وقال :

— ما كان أعظم البلية يا أبا عثمان ، لكن ما أسرع ما سريت عني ! ووالله لولا أن فينا حفاظا على الود لكان من أمرنا ما لا يجوز ، وعلى أى حال لك جائزتنا .

ووصل الجاحظ الى دار السلام بجائزتين .. احدهما من أمير المؤمنين ، والأخرى من أحد كبار الأمراء المصعبين !

١٢ - حاجة الأمة والجاحظية

ما تعاقب بعد ذلك من سنين أثبت للجاحظ أن أبا الوليد لم يستطع كأبيه أن يمسك أمير المؤمنين للاعتزال ، وقد بدأ الأمر بتقصي المتوكل أحوال ابن حنبل وبالسكوت حتى اشتداد سواعد الجماعة من جديد . وقابل الجاحظ ذلك بالقعود في المسجد لمراجعة أصول المعتزلة ، واستذكار كتب ابراهيم وابن عطاء والعلاف ، مع بسط آراء ثمامة حتى شملت جميع أمور المعاش . ومن ناحية أخرى نادى بضرورة التجاوب مع السلطان ، بعد أن كان من رأيه أن السلطان سوق يجلب اليها كل شيء لينفق فيها ، والحقيقة أنه لا ينفق فيها الا العلم والبيان عنه .

وقد اعتاد أن يبعث لأبي الوليد بالكتب ، وفي المقابل كان هذا

يمده بحاجته الى المال . وفي احدى رسائله اليه ذكر له أن الصراع اشتد بين محدثي البصرة وأصحاب الرأي من أهل الكوفة ، تماما كما اشتد بين أهل السنة وأهل الاعتزال ، ثم وعد أباه في رسالة قدم بها كتاب الفتيا اليه — وكان تحدث عنه من قبل — بأنه يزمع اصدار عدة كتب « ليس يمنعني من أن أهديها اليك معا الا ما أعرف من كثرة شغلك ، وكثرة ما يلزمك من التدبير في ليلك ونهارك » .

لكن اذا كانت هذه الكتب مما ليس « من باب الطفرة والمداخلة ولا من باب الجوهر والعرض ، بل هي كلها من الكتاب والسنة وبجميع الأمة اليها أعظم الحاجة » فقد كتب لغيره عن « الاستطاعة وخلق الأفعال » و « الناشئ والمتلاشي » و « أحوثة العالم » وفي « الرد على من زعم أن الانسان جزء لا يتجزأ » . والكتاب الأخير يبين تماما أنه فارق أستاذه وصديقه ، وتفرد باتجاه أطلق عليه أصحابه وخصومه معا « الجاحظية » كما يبين أنه يذهب الى أشياء قال بها ثمامة في أن « لا فعل للعبادة الا الارادة وأن سائر الأفعال تنسب الى العباد ، على معنى أنها وقعت منهم طبعا ، وأنها وجبت بارادتهم » (٣٥) .

وأول الكتب (٣٦) « كتاب نظم القرآن » يحتج فيه لنظم كتاب الله وغريب تأليفه وبديع تركيبه ، ويرد فيه على النظام بصفة خاصة عندما يجعل الاعجاز « الصرفة » فقد تصح ، ولكن ليس على طول الخط ، لأن القرآن في الواقع معجز في نفسه .

وثانى الكتب « كتاب آى القرآن » يعرف فيه فصل ما بين
الايجاز والحذف وبين الزوائد والفضول والاستعارات .

وثالثها « كتاب مسائل القرآن » جعل موضوعه أهم القضايا
التي ناقشها كتاب الله بقوله « يسألونك عن .. » .

وأما أبو الوليد فقد كتب له كثيرا ، ولكن أشهر كتبه اليه
« رسالة المعاش في الأدب وتدبر الناس ومعاملاتهم » (٣٧) أراد
فيها أن ينبه الى دوره في تنظيم حاجة الأمة ، بعد أن أصبح رجلا
في قمة رجالاتها . فهو مهما يكن لابد أن يبصر ، وهو اذا أراد
أن يكون حكيما ، فمن الضروري أن يحسن الارتياذ لموضع
البنية .

وانى عرفتك — أكرمك الله — في أيام الحداثة وحيث سلطان
اللهو أغلب على نظرائك وسكر الشباب المتحيف للدين مستول
على لداتك ، فاخبرت أنت وهم ففقتهم ببسطة المقدرة وحميا
الحداثة وطول الجدة ، مع ما تقدمتهم فيه من الوسامة في الصورة
والجمال في الهيئة . وهذه كلها أسباب توجب الاتقياد للهوى ،
ولجج من المهالك لا يسلم منها الا منقطع القرنين في صحة الفطرة
وكمال العقل .

لكن .. كل هذا واضح ، والوقوف عنده ليس أكثر من ازجاء
الشكر ، ومن لم يشكر للناس لم يشكر الله .

« فرأيت أن أجمع لك كتابا من الأدب جامعا لعلم كثير من
المعاد والمعاش أصف لك فيه علل الأشياء ، وأخبرك بأسبابها ،

وما اتفقت عليه محاسن الأمم ، وعلمت أن ذلك من أعظم ما أبرك به ، وأرجح ما أتقرب به اليك ، وكان الذى حدانى على ذلك ما رأيت الله قسم لك من الفهم والعقل ، وركب فيك من الطبع الكريم .

وهكذا يمضى فيحدثه عن أن العقل المطبوع لا يبلغ غاية الكمال الا بمعاونة العقل المكتسب ، والبرايا كلهم على ذلك النحو ، ومن ثم فليأخذ في وظيفته . فليخف الله ولا يغتر به ، وليجعل العدل والنصفة في الثواب والعقاب حاكما بينه وبين اخوانه ، وعليه ألا يفرط في الكبر لأنه يدعو الى مقت الخاصة ، كما عليه ألا يفرط في المؤانسة والاقباض والحذر والمضرة والمنفعة ، لأن الافراط في أى منها ينتهى الى ما لا تحمد عقباه .

« واعلم أنك ستصحب من الناس أجناسا متفرقة حالاتهم متفاوتة منازلهم ، وكلهم بك اليه حاجة ، وكل طائفة تسد عنك كثيرا من المنافع ، لا يقوم بها من فوقها ، ولعلمهم مجتمعون على نصيحتك والشفقة عليك . »

لكن احذر يحيى بن أكثم . انه يوغر صدر الخليفة عليك وعلى ابنك كما أوغر هذا صدره على ابن الزيات ، ولا تخليته من عنايتك على أن تعلم أنه سيمر بك في معاملاته حالات تحتاج فيها الى مداراته ، والذى تعامل به الصديق هو ضد ما تعامل به العدو « فالصديق وجه معاملته المسالمة والعدو وجه معاملته المدارة والمواربة ، وهما ضدان يتنافيان يفسد هذا ما أصلح هذا ، وكلما

تقصت من أحد البابين زاد في صاحبه ان قليل فقليل ، وان كثير فكثير .

يستطيع ابن أكرم أن يدفع بنجم الاعتزال الى الأفول ، فلا يعود لواءنا يخفق في سماء العلم ، والمقادير ربما جرت بخلاف ما تقدر الحكماء فينال بها الجاهل في نفسه المختلط في تديره ما لا ينال الحازم الأريب الحذر « فلا يدعونك ما ترى من ذلك الى التضييع ، والاتكال على مثل تلك الحال ، فان الحكماء قد أجمعت أن من أخذ بالحزم وقدم الحذر فجاءت المقادير بخلاف ما قدر كان عندهم أحمد رأيا وأوجب عذرا ممن عمل بالتفريط ، وان اتفقت له الأمور على ما أراد » .

ومن يدري ، فلعل غضب أمير المؤمنين على بعض حاشيته كإيتاخ — الذى كان اليه الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبريد والحجامة — بعض ما يؤذن بجدا لا يطمأن فيه ولا يقر .

وكان مقتل إيتاخ فى عام ٢٣٥ بعد أن نظم المتوكل العهد لأولاده الثلاثة وثار الترك ، وقيل ان ابن أكرم راح يقول له : « كلهم لا يقول بخلق القرآن وهم عصبتك ومعتمدك عليهم فأرضهم » .

وأرض أنت أصدقاءك يا أبا الوليد واستكثر منهم « فانهم جند معدون لك ينشرون محاسنك ويحاجون عنك ، ولا يحملنك استطراف صديق ثان على ملالة للصديق الأول ، فان ذلك سبيل

أهل الجهالة » واعلم أن الحكماء لم تدم شيئا مثل ما ذمت أربع
خلال هي : الكذب ، والغضب ، والجزع عند المصيبة ، والحسد
» وبقدر ما ذمت الحكماء هذه الأخلاق الأربعة فكذلك حمدت
أضدادها .

واعلم أنك موسوم بسيها من قارنت وأن كثرة العتاب سبب
للقطيعة وأن اطراحه كله دليل على قلة الاكتراث لأمر الصديق ،
واقصد في مزاحك ولا تنشر محاسنك بنفسك ، « وارتد لنعمك
مغرسا تنمو فيه فروعها ، واعلم أن استصغارك إياها يكبرها عند
ذوى العقول وسترها منك نشر بها عندهم » فأنشرها بسترها
وكبرها باستصغارها .

ولكنى أطلب أن أقول كلمتى وأصدق النصح ، وقد يرى
بعض من يحسدنى على ما أنا فيه أنى أنافق ، فهل من النفاق أن
أقول الكلمة الطيبة والكلمة الطيبة صدقة أيها القاضى العادل ؟

احذر الحذر كله الاغترار بثلاثة أمور ، فان من عطب بها كثير
وتلافيها صعب شديد « أحدها أن لا تولى جسائم تصرفك وتقلد
مهم أمورك ووثائق تدبيرك الا امرأ صلاحه موصول بصلاحك ،
أو أن تأنس أن تعتز بمن تعلم أن بصلاحك فساد ، وبارتفاعك
انحطاطه وبسلامتك عطبه ، فان من كان هكذا فأنت ملك بموته ،
أو أن تجعل مالك كله فى عقدة واحدة أو حيز واحد أو وجه منفرد
أن اجتاحتها جائحة أو نابته نائبة بقيت حسيرا » .

على أنى أوصيك برياضة نفسك أنت حتى تذللها على كل

الأمر المحمود التي عرضتها ؛ ومن ثم لابد أن تكون المساهلة في أخلاقك أغلب عليك من المعاصرة ، والحلم أولى بك من العجلة ، والصبر الحاكم عليك دون الجزع ، والعفو أسبق اليك من المجازاة بالذنوب والمكافأة بالسوء .

« أسأل الله المبتدئ بكل نعمة ، والمتولى لكل احسان أن يصلى على محمد خيرته من خلقه ، وصفوته من بريته ، وأن يتم عليك نعمته ، ويشفع لك ما خولك من نعمته بالنعمة التي يؤمن معها الزوال في جواره ومرافقة أنبيائه ، والسلام عليك ورحمة الله » .

١٣ - عاصفة

وفي العام نفسه — أى عام ٢٣٥ — فرض المتوكل على الذميين لبس الطيالة العسلية ، وشد الزنابير . وركوب السروج بعد أن يعمل لها من المؤخرة كرتان ، كما أمر أن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب . وكان هذا ايذاً بزيادة مشكلات الخليفة ومن يتصل به ، كما كان مجالا للجدل العنيف بين المسلمين والمسيحيين . وأسهم الجاحظ في المعركة بكتابات عن الاسلام ، وبخاصة بعد أن راح الباطنية ينتهزون الفرصة ، ويدلون بأرائهم التي تريد أن تهدم صروح الاعتزال .

وبعد أن كتب « خلق القرآن » رد على دعاة التشبيه في كتاب لم يكد يفرغ منه حتى بعث برسالة لأبى الوليد يقول له فيها بعد المقدمة : « وقد كتبت — مد الله في عمرك — في الرد على المشبهة

كتابا لا يرتفع عنه الحاذق المستغنى ، ولا يرتفع عن الريض
المبتدىء . »

ويبدو أنه أراد أن يستفتيه فيه ، لأنه بعد قليل يقول له : « فأنا
أسألك — أكرمك الله — أن ترى هذا الكتاب وتقرأ ما خف عليك
منه ، فان يصلح الكلام وكان كما وصفت ، وكما ضمنت حشت
على قراءته وعلى اتخاذه وعلى تخليده وعلى تدوينه . »

وهو ينافح عن المعتزلة بإيراد الحجة والمنطق والمناظرة العقلية ،
فيدحض بسهولة الباطنية المشبهة التي كان سندها الأول قوة
العاطفة الدينية التي تلين قلوب العامة وتشدها إليها . وحرام
— على أى حال — على كل متكلم عالم وفقه مطاع وخطيب
مفوه ان كان عنده من الأمر شيء الا أن يأتي أبا الوليد به ويذكره
بما عنده ، قل أو كثر وصادف منه شغلا أو فراغا .

« على أننا لم نطق الا بالسنتكم ولم نحتذ الا على مثالكم ،
ولم تقو الا بما أعزتمونا من فضل قوتكم . وعلى أهل اللسن
من الخطباء معاوتكم ومكاتفتكم . »

اننى جاد وتركت الهزل جانبا . فلعلها الشيخوخة ، ولعلها
أحوال الدنيا ، ولعلها المسائل العويصة أثقلت علينا ، أو لعلها
المشاكله فى الصناعة التى ان كانت توجب الضغن من الحاسد
تدفع المحتود الى الحرص واصطناع المشقة ابتغاء المثوبة . غير
أننى اذا كنت دفعت بالكتاب اليك دون أبيك — وهو لا يزال

كبير الأثر — فلأني أعرف أنك تجرى معه في الأمور مجرى واحداً ، ولعل قائلًا أن يقول : وكيف لم تذكر أمير المؤمنين والمعتمد برب العالمين الذي حقق الله به الدين وسدد به الثغور ؟ قلنا « ان عقل الرسول يدل على مرسله واعتدال القناة يدل على حذق المثقف ، ومديحك الوزير راجع الى من اختاره » .

على أن هذا لا يمنع من أن للمتوكل مغامز .. فمن في حاشيته غير قاضي القضاة ووزيره الكاتب الرقيق المجدود عبيد الله ابن يحيى بن خاقان ؟ والبقية أصحاب مجون ومصطنعو نادرة .. لا على ما يحتشم أبو العيناء والجماز — قطبا القصر — لكن على ما يتبذل أبو حسان النملى وحمدون النديم والكتنجى ومانى الموسوس وأبو العبر الرقيع الذي كان من بيت الخلافة وأبو العننس الصيمرى الذى شغل قضاء الصيمرة زمنا (٣٨) .

ولو كان الجاحظ في مثل نشاط هؤلاء ، وقد اختلط بذوى الفضل والذكر الحسن من أمثال ابراهيم بن السندي و ابراهيم بن العباس و ابراهيم بن المدبر وأبى العباس المبرد — وقد أعلن هذا تلمذته للشيخ أبى عثمان — لبرز في الهزل والمضاحك ، كما لم يظهر أحد ولتمسك به أصفياء المتوكل .. وصيف حاجه وبغا الصغير وباغر التركي ورجاء الحضارى !

ومع ذلك فقد كان الجاحظ اذ ذاك في أحسن أيامه رخاء ، وكان الوزير يغدق عليه ورتب له مرتبا مستديما كل شهر ، في حين تولاه بالرعاية والسؤال عنه وذكره للمتوكل داعيا اياه لسامرا

من جديد الفتح بن خاقان مولى الخليفة ونديمه الأمير (٣٩) .
وكانت فتنة النصارى قد بلغت أقصاها ووعد الجاحظ بالكتابة
فيها ، فلما صدر عن رسالته « في صناعة القواد » قاصدا بها
أمير المؤمنين (٤٠) بعث اليه الفتح يقول : « ان أمير المؤمنين
يجد بك ، ويهش عند ذكرك ، ولولا عظمتك في نفسه لعلمك
ومعرفتك لجال بينك وبين بعدك عن مجلسه ولعصبك رأيك
وتدبيرك فيما أنت مشغول به ومتوفر عليه . وقد كان ألقى اليّ
من هذا عنوانه فردتك في نفسه زيادة كف بها عن تجشيمك ،
فاعرف لى هذه الحال واعقد هذه المنة على كتاب الرد على
النصارى وافرغ منه وعجل به اليّ ، وكن من جدا به على نفسه
وتنال مشاهرتك قد استطلقت لما مضى ، واستسلمت لك لسنة
كاملة مستقبلة ، وهذا مما لم تحتكم به نفسك ، وقد قرأت
رسالتك في بصيرة غنام ، ولولا أنني أزيد في مخيلتك لعرفتك
ما يعتزني عند قراءتها والسلام » .

ولا يمكن الزعم أنه كان لأبى الوليد أو لأبيه فضل على
الجاحظ فيما وصل اليه هذه الفترة ، فقد كان قاضى القضاة قد وقع
فريسة لغضب الخليفة فأقصاه عن مناصبه سنة ٢٣٧ ، وحجبه
هو واخوته في ديوان الخراج ، وأمر بالتوكيل على ضياعه وضياع
أبيه ، وأمر بهما فحدرا الى بغداد حيث مات أبو الوليد
سنة ٢٣٩ ، ومات أبوه من بعده محسورا في أوائل سنة ٢٤٠ .
وكان موت أبى الوليد نهاية للاعتزال فى القصر ، فقد تولى

يحيى بن أكثم قضاء القضاة ، وساعد الخليفة الذي كان يتسنن خفية — ومعه الفقهاء من أهل السنة الذين التف الحزب العربي في المملكة ضدهم — على أن ينهى الناس عن الكلام في خلق القرآن وأمرهم بالتسليم وبالتقليد ، وحرر ابن حنبل من كل ما فرض عليه من قيود قبل أن يموت سنة ٢٤١ .

إنها عاصفة مدمرة ، وكان من الممكن أن تطيح بالجاحظ لولا مساندة الفتح ، وعبيد الله بن يحيى له ، ولولا خوضه في الدفاع عن الدولة ضد الذميين (٤١) — الذين استمر اضطهادهم وحظر الحاقهم بالوظائف الحكومية — واشتداد شوكة الأتراك الذين حاول هو أن يؤلف بين قلوبهم لتسلم صدورهم في رسالة بعث بها إلى الفتح (٤٢) .

على أنها تركته وقد تحطم ، فقد ثقلت عليه علة ساقه ، ثم لزم داره مفلوجا مكثرا من الحديث عن الحسد والعداوة — وقد بعث لعبيد الله بن يحيى بن خاقان رسالة في هذا الموضوع — ليقول بصراحة : إنه أصبح يلقى من الناس الكراهية بوجهيها ؛ إذا كانت مستورة فهي الحسد وإذا كانت سافرة فهي العداوة .

وفي سنة ٢٤٣ رجع إلى البصرة لما نزع المتوكل إلى دمشق هاربا — بعد أن لحظ فشل سياسة التعاون مع الفرس والترك — وفيها عاد ذهنه إلى التوقد يكتب ، كما خطط لكتاب كبير كان فكر في إهدائه لابن أبي دؤاد يوم ثار جدل بين النظام ومعبد حول ضروب معينة من الحيوان . ولكن الرسل لم تلبث أن جاءت به نبأ رجوع الخليفة إلى سامرا ، بعد أن اكتشف مؤامرة لقتله ،

وكان في صفه رجاء الحضاري . فبدأ من جديد يتطلع الى سامرا
بخاصة ، بعد أن تمكن أبو الفرج نجاح بن سلمة من أن يقبض
رزقه عنه ، وفعلأ أعد العدة . وجعل في مقدمة أعماله انجاز قصيدة
يخاطب بها هذا الكاتب الذي كثر شامتوه وحساده ، وبعث بها في
رسالة موصى على أن يضمها أسماء من كنيته « أبو عثمان » وفي
القصيدة يقول : (٤٣)

أقام إدار الخفض راض بخفضه

وذو الحزم يسرى حين لا أحد يسرى

يظن الرضى شيئاً يسيراً مهوناً

ودون الرضى كأس أمر من الصبر

سواء على الأيام صاحب حكمة

وآخر كاب لا يرش ولا يبرى

خضعت لبعض القوم أرجو نواله

وقد كنت لا أعطى الدنية بالقسر

فلما رأيت المرء يبذل بشره

ويجعل حسن البشر واقية التبر

ربت على ضلعي وراجعت منزلى

فصرت حليفاً للدراسة والفكر

وشاورت اخواني ، فقال حكيمهم

عليك الفتى المرى ذا الخلق الغمر

أعنيك بالرحمن من قول شامت :

أبو الفرج المأمول يزهد في عمرو

لم أعد سيد نفسي ولا أنا مستطيع أكثر مما يستطيعه غيري .
لقد أدخلت على المتوكل فتمأثر الجلساء واستخفوا بي والخليفة
يضحك ! وعندما دخل ابراهيم بن العباس فهض اليه الفتح
ابن خاقان وسكت أصحاب الهزل ، أفلم يقل أمير المؤمنين
لا يهزأن أحد بين يدي حتى يقوم ابراهيم !

وعاد الى داره ثقیل الخطو واعتكف ، ولم يخرج الى الناس
حتى أتم « كتاب الزرع والنخل » وأهداه الى ابراهيم بن العباس ،
فبعث اليه بالحسن بن مخلد — وكان يخلفه على ديوان الضياع —
وسلمه خمسة آلاف دينار ، وفي اليوم التالي زاره وقبله على
رأسه وهو يقول :

— زه زه ، والله أحسنت على ما رأيت من أشياء لم تعجبني .

فتساءل الجاحظ :

— في هذا الكتاب ؟

فأجاب :

— فيه وفي غيره .

فأطرق الجاحظ مفكرا منكرا ، فصاح ابراهيم :

— ان اليوم والله يوم سرور بك وبما تكتب فما هذا الغم ؟

قال الجاحظ :

— والله ان الحق أولى بمثلى وأشبهه ، انى لم أدفع الا بكل ما عندى فان قصرت فذلك عزمى .

فنهض ابراهيم وهو يقول :

— بل أعلم أن وراءك لا يزال الكثير ، فهل أبا عثمان !

وخرج ولم يعد ، لأنه مات . وأما الجاحظ فقد جلس يفكر ، وعبثا حاول ابن أخته يموت رده الى نفسه . على أنه عندما دخل عليه بعض صحبه وحدثوه بما عاد يثور حول نقاش النظام ومعبده بصدد الكلب والديك قال بحده :

— لولا أنى شرعت فى كتاب عن البلدان لكتبت فى هذا الموضوع كتابا ، ولكنى أتمه ان شاء الله .

قال بعضهم :

— لقد أتى شيخا المعتزلة على كل شىء فيه ولم يعد لك ما تقول فيه .

فقال الجاحظ :

— اذا سمعت الرجل يقول ما ترك الأول للآخر شيئا فاعلم أنه ما يريد أن يفلح !

ثم لم تمنعه العلة من أن يمضى فيما اعتزمه ، حتى اذا دخل عليه رسول من عند المتوكل يستدعيه شوقا الى حديثه قال بأسف :

— وما يصنع أمير المؤمنين بامرئ ليس بطائل ، ذى شق مائل
ولعاب سائل .

ورفع يدا ثقيلة الى عينيه يسح دموعا بدأت تنحدر ، واتجه
أحدهم اليه يقول :

— وما يقول الأطباء يا أبا عثمان ؟

أجاب :

— ما قلته فى كتاب تقض الطب .

وضحك ، ثم قال لوراقه :

— أتخفظ شعر عوف بن محلم الخزاعى ؟

قال الوراق :

— عن أيش يا أبا عثمان ؟

قال الجاحظ :

— عما أنا فيه من حال ما ترى فهو يقول :

ان الثمانين وبلغتهم — قد أحوجت سمعى الى ترجمان

وقد جزتها والله ووهن العظم منى ، واشتعل الرأس شييا ،
وما أحسب أن يكشف الابتلاء عن محمدة ، بعد أن قضت لى
تجارب الحداثة بالتقدمة الا أن يشاء الله !

هكذا راح الرجل المريض يعيش ، متخوفا من انقضاء سنيه
وانطفاء شمعته حيناً ، ومشفقاً حيناً آخر على أن يقصر فيأخذه
الكاشحون والشامتون . وما كانت زيارات المبرد وسائر صحبه

بالتى تملأ عليه فراغه ، بل على العكس طالما شكّا قلة الأعوان
وندرّة العواد ، حتى كأنما الأيام أدبرت عنه الى الأبد .

لقد رفعه الجد وألقى به من بلد الى بلد ومن ولى الى ولى ،
وأوقع في حباله ألوانا مختلفة من الرجال ، وجعل منه رجلا يخشاه
الكثيرون ، ويحسده الكثيرون . فاذا هو على استعداد لأن يرمى
في كل مقصد ، ويزج به الى كل قضية ، ويطرح اطراح الابتلاء
الشديد ليطفو في نهاية الأمر فوق الأحداث .. وأما اليوم !

لا حيلة لى في الأمر ، وتلك سنة الله في أرضه ، تفرق البرايا
كلهم وتتفاوت بهم منازلهم لتكون العلل التى يوجب بعضها
بعضا ، فقيم الشكوى وقيم البحث عن الشيء الذى يحتال لقلوبهم
به حتى تستمال ، وحتى تؤنس بعد الوحشة ، وتسكن بعد النفار ؟

وعلى هذا المنوال تمضى حياته حتى يسمع ذات صباح من
سنة سبع وأربعين ومائتين بقتل المتوكل والفتح بن خاقان بعد
ليلة صاخبة شهدها البحترى الشاعر الكبير ، ووضع نهاية لها
بسيفه باغر التركى ومعه عشرة من الأعوان المثلثين تبرق سيوفهم
في ضوء الشموع .

وقد أذاع كل من أوتامش وبغا الشرابى النبأ ، وأعلنّا عزل
الوزير عبيد الله بعد أن طلبا أن يبايع الناس لأبى جعفر محمد
المنتصر بن المتوكل . وتم الأمر بسرعة ، وجاء أحمد بن الخصيب
— وكان بينه وبين الجاحظ قطيعة — وزيرا فأقصاه عن القصر
بقدر ما استطاع .

لم يمكث المنتصر في الحكم سوى ستة أشهر مات بعدها ، فخلفه المستعين أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم سنة ثمان وأربعين ومائتين ، وأسرع هذا فنكب أحمد بن الخصيب وقلد مكانه ابن يزداد فشجاع بن القاسم كاتب أوتامش ، وأطلق يد أوتامش هذا في بيوت الأموال حتى استاء الجميع . وراح وصيف وبغا يتآمران ضده مع الجنود ، فلما قتل استفحل أمر باغر ، فقرر الرجلان قتله أيضا ، وقد أدرك هو ذلك ، وعلم أن الخليفة في صفهما فجمع أعوانه وقال لهم :

— الزموا الدار حتى تقتل المستعين وبغا ووصيفا ونجىء بعلى ابن القاسم أو بابن الواثق فنعهده خليفة حتى يكون الأمر لنا كما هو لهذين اللذين قد استوليا على أمر الدنيا وبقينا نحن في غير شيء !

وهرع المستعين الى وصيف وبغا وقال :

— ما طلبت اليكما أن تجعلاني خليفة وانما جعلتاني وأصحابكما ثم تريدان أن تقتلاني .

ولما نجح حزب وصيف وبغا في قتل باغر أسرا ومعهما الخليفة الى بغداد يصحبهم جلة العمال والكتاب وجماعة بنى هاشم ، وعشا حاول أتراك سامرا ارجاع المستعين . ومن هنا قرروا خلعه وتولية أبي عبد الله محمد بن المعتز بن المتوكل ، وبويع له بالفعل في سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، وأرسل جيشه — وكان معظمه من المغاربة والفراغة — الى بغداد فتم له فتحها .

على أن المعتز سرعان ما اختلف مع الأتراك ، لأنهم كرهوا
ميله نحو المغاربة والفراعنة . ومما زاد الأمر تعقيدا خلو دور
الأموال من المال ، حتى لقد اضطر المعتز الى أن يستقرض أمه
قبيحة — وكانت مثرية للغاية — وترفض الأم ، فلا يكون نصيبه
بأحسن من نصيب أبيه ، فيقتل عشية يوم الجمعة لليلة خلت من
شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين .

وقبل ذلك بسبعة أشهر — أى فى شهر المحرم — مات الجاحظ
وهو فى البصرة وقد أصيب بالنقرس علاوة على الشلل ، وكان يطلى
نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته والنصف الآخر
لو قرض بالمقاريض لما أحس به من خدره وشدة برده ، وقد زاره
المبرد قبل موته فقال له :

— كيف أنت ؟

فأجاب قائلا :

— كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمنشير ما شعر به
ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه ، وأشد من ذلك
تقدم سنئ :

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس كالجديد من الثياب
وزاره باسم المعتز كل من بختيشوع بن جبريل وسلمويه
وابن ماسويه ، فأما بختيشوع فانه لما سمع قوله :

— اصطلحت الأضداد على جسدى ، ان أكلت باردا أخذ
برجلى وان أكلت حارا أخذ برأسى .

قال :

— لا حول ولا قوة الا بالله !

في حين انبرى ابن ماسويه يقول في شماته :

— أتتحدث عن المضادة أيها العجوز ؟

وتلعل الجاحظ . فقد تذكر أنه اجتمع بابن ماسويه على

مائدة أحد الوزراء أو الكتاب الكبار — فلم يعد يتذكر تماما —

وكان في جملة ما قدم مضيرة بعد سمك فامتنع ابن ماسويه من

الجمع بينهما ، فقال له :

— أيها الشيخ لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن

أو مضادا له ، فان كان أحدهما ضد الآخر فهو دواء له ، وان كان

من طبع واحد فلنحسب أن قد أكلنا من أحدهما الى أن اكفينا .

فقال ابن ماسويه :

— والله ما لي خبرة بالكلام ولكن كل يا أبا عثمان وانظر

ما يكون في غد !

فأكل هو نصرة لدعواه فكان أن عجز عن تحريك قدمه ،

وعزى ابن ماسويه ذلك الى مسألة الطبع وضده . ونسى هذا

المتطبب أن للسِّن حكما ولقيد ابن أبي دؤاد في ساق غليظة أثره

الذي لا يمكن أن يغفل .

وأما ابن ماسويه فقد راح يستوضحه الحكاية التي ينسبها

الى شماته في « كتاب نقض الطب » ويقول فيها ان الأطباء زعموا

أن الذباب اذا ذلك به موضع لسعة الزنبور سكن ، وأنه عندما

لسعه زنبور حكك على موضعه أكثر من عشرين ذبابة فما سكن ،
ثم قال له :

— لولا أن أمير المؤمنين طالبنا بعيادتك لما قلت لك تطيب
بهذا الدواء !

وأعطاه القنينة ومضى ، فدخل عليه في أهل البصرة جماعة
فسألوه عن حاله فأجاب :

عليل من مكانين من الأسقام والدين

ووالله أنا في العلل المتناقضة التي يتخوف من بعضها التلف !

واشتد جزع أهل البصرة ، وراح القاصي منهم والداني
يتذكر فضله وعلمه ، ويحكي عن كتابين عظيمين أشار إلى
وجودهما في مكتبته وهما « الحيوان » و « البيان والتبيين » .
ثم أخذ الأغراب يتوافدون على داره حتى إذا كانت ليلة موته
دخل عليه أحد وجوه البرامكة — صاغ ماله عشرة آلاف اهليلة
في كل اهليلة ثلاثة مثاقيل قبل أن يفد على البصرة — فحدثه
عن « الحيوان » الذي كتبه ثم رجع إليه فزاد فيه ونقح ، وفي
نهاية الزيارة تذاكر معه البرامكة ثم قال :

— لقد انجبر بهم خلق كثير فسقيا لهم ورعيا .

فدعا له البرمكي ثم قال :

— أسألك أن تنشدني شيئا من شعرك .

فقال :

— والله ما أدري ما أقول ولست بشاعر ، ولكن اليك هذين

البيتين :

لئن قدمت قبلي رجال فطالما
مشيت على رجلي فكنت المقدما
ولكن هذا الدهر تأتني صروفه

فتبرم منقوضا وتنقض مبسرا
وبعد ذلك قام ، فلما قارب الدهليز صاح الجاحظ قائلا :
— أرايت مفلوجا ينفعه الأهليج ؟

أجاب :

— لا والله !

فقال الجاحظ :

— فان الاهليج الذي معك ينفعني فابعث لي منه .

فتعجب البرمكي وقال « أفعل » ثم خرج يتساءل كيف وقف
على خبره مع كتمانہ اياه . ولما أرسل له مائة اهليجة لم يقدر له
أن يتسلمها ، فقد حدث أن تحامل على نفسه الى غرفة كتبه وما كاد
يجلس وحواليه الأسفاط والرفوف والقماطير والمدفاتر ، حتى
انهالت الكتب فوقه دون أن يستطيع حراكا . فقفى عليه في الحال ،
فحوقل الناس وترحموا عليه ، وبكى المعتز فقال بعض صحبه :

— لأمير المؤمنين طول البقاء ودوام النعماء .

وبكاه أبو العيناء بدمع غزير ، فسئل :

— ليت شعري أى شيء كان الجاحظ يحسن ؟

فقال :

— ليت شعري ، وأى شيء كان الجاحظ لا يحسن !

تلك السنوات التسع لا تعطينا شيئا كثيرا عن الجاحظ في الحياة العامة ، فقد أقصى عن السياسة وكان دائما من كتابها فابتعد ، ولكن بالقدر الذى لا يجعله فى الظلام . فهو يرسل إبراهيم بن المدبر ويضع « كتاب آل ابراهيم بن المدبر فى المكاتبه » وهو يتصل بسليمان بن وهب وغيره من الكتاب والمستوزرين ويكتب « رسالة فى مدح الكتاب » بعد أن ذمهم ، وظل على علاقة طيبة بأبى الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان . على أنه استدعى أكثر من مرة الى قصر الخلافة ، فكان يرفض مرة ويجيب أخرى ، وقد تمنى المعتز قبل مصرعه أن يكون أحد خلطائه .

وليس مناص من الاعتراف بأنه من العسير أن نصدق كيف وهو فى هذه الأحوال - وقد كان مريضا يخف عليه الفلج ويزيد - يظل حاضر الذهن متوقد الدهر ، فيحدث عواده وتلاميذه .. دون مزح ، لأنه كان قد انتهى الى حيث لا يكون الا تطرف أهل الفهم والى أن الشيخوخة ألزم لها وقار العلم .

على أنه لا يننى يشكو ، ومن ذا الذى يعيش مقيدا بالقلم ناظرا فى ثبت المراجع ثم لا يمل أو يكل ؟ فضلا عن المرض الذى لا شك كان يلقي عليه ظلالا من الأسى حزنا على ما فاته من اللذات والمتع .

اننا حريون أن نشعر بالدهش اذ نتبين فداحة الثمن الذى اداه مقابل محاولاته لاتزانه العقلى مع سلوك فنى محدد ، وأنه لثمن عملته الترسل والاستطراد واصطناع الأسلوب العلمى الجليل مبتعدا عن الأسلوب الغنائى .. أسلوب الرجل الشهوان

الذى أحب الحياة في كأس نبيد (٤٤) وأكلة شهية (٤٥) وبدن لدن ،
وأغنية حلوة (٤٦) .

هذا ما نراه في كتابه « الحيوان » و « البيان والتبيين » .

ويجب أولا أن لا نصدق ما يروى أنه أهدى الأول لابن الزيات
فأعطى خمسة آلاف دينار ، وخص بالثاني ابن أبى دؤاد فظفر
منه بمثل ما ظفر به من ابن الزيات (٤٧) فهذه الرواية التى يروها
ياقوت الحموى على لسان الجاحظ لم تظهر الا فى كتابه منقولة
عن ميمون بن هارون ، أحد القلة التى عقد بهم الجاحظ صلة
فى أخريات أيامه ، وظهورها على هذا النحو يشكك فيها . فضلا
عن أن الأصل فى موضوع الحيوان - ولم يكن فى حدس الجاحظ
أن يكبر باستطراداته التى غلب عليها الأدب ولاحظها وهو يملئ -
كان مما يشغل المتكلمين أو المعتزلة بوجه خاص ، والملاحظ بصفة
عامة أن ابن الزيات كان كمويس بن عمران صديقا للمعتزلة أكثر
منه مفكرا منهم . والدليل على ذلك أنه لم يشترك فى محاكمات
ابن حنبل التى برز فيها ابن أبى دؤاد بصورة مزرية آثمة ، بل
يمكن أن نزع أن « البيان والتبيين » أكثر موافقة لمزاج ابن الزيات
الفنى لأن الأدب أغلب عليه ، أو هو من المجالات التى يميل إليها
ذلك الوزير الأديب الشاعر .

فهل معنى ذلك أن ابن أبى دؤاد هو صاحب « الحيوان »
أو هو من أهدى إليه الكتاب فمنح الجاحظ جائزته الكبيرة ؟

الإجابة لا لشيء بسيط هو أن « تاريخ » الحيوان بما أثبت
فيه من روايات عن متعاصرين محدثين (٤٨) يجعل لانتهاه زمنا
يقع بعد موت قاضى القضاة ، الا أن يكون الجاحظ شرع فيه
ولم يتمه الا بعد انتهاء حياة ابن أبى دؤاد . . الأب والابن على حد
سواء ! .

اننا ننظر الى ما قبل والى ما بعد ، ونحاول ان نتحقق
 فلا نستطيع . فقط نعرف أن الجاحظ كتب الحيوان بعد الجدل
 الذى نشب بين النظام ومعبد وكتبه أيضا وهو مريض أو وهو
 شديد المرض - أى أن الكتاب صادف احدى السنوات التسع
 الأخيرة - حتى ليقول : « أول ذلك العلة الشديدة ، والثانية قلة
 الأجران ، والثالثة طول الكتاب ، والرابعة أنى لو تكلفت كتابا
 فى طوله وعدد الفاظه ومعانيه ثم كان من كتب العرض والجوهر
 والصفرة والتوليد والمداخلة والفرائز والنحاس لكان أسهل
 وأقصر بابا وأسرع فراغا . لأنى كنت لا أفزع فيه الى تلفظ
 الأشعار ، وتتبع الأمثال ، واستخراج الآى من القرآن والحجج
 من الرواية ، مع تفرق هذه الأمور فى الكتب » (٤٩) .

وإذا مضينا مع النص نرى الجاحظ يخاطب من قصده
 بالكتاب بقوله « فان وجدت فيه خلا من اضطراب لفظ ومن سوء
 تأليف ، أو من تقطيع نظام ومن وقوع الشيء فى غير موضعه ،
 فلا تنكره بعد أن صورت عندك حالى التى ابتدأت عليها كتابى » .
 أما من هو فلا دليل عليه ، ومن ثم لا يبعد أن يكون هذا
 - أى مخاطبة شخص ما فى الكتابة - منحنى فنيا استهدف به
 الجاحظ تقريب القارئ اليه واستهواءه اذ يدغدغ عواطفه ويربت
 عليها .

وإذا انتقلنا الى « البيان والتبيين » وهو يلى « كتاب الحيوان »
 تاريخيا اذ يقول الجاحظ فيه « وهذا الباب يقع فى كتاب الانسان
 من كتاب الحيوان ، وفى فصل ما بين الذكر والانثى ، وليس هذا
 الباب مما يدخل فى البيان والتبيين ولكن قد يجرى السبب
 فيجرى معه بقدر ما يكون تنشيطا لقارئ الكتاب » (٥٠) نجد
 الشيء نفسه ، أى أننا نرى من يحرص الجاحظ على مخاطبته
 « وليس حفظك الله مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة وسقطات
 الخطل يوم اطالة الخطبة بأعظم مما يحدث عن العى من اختلال

الحجة... ثم أعلم أبقاك الله أن صاحب التشديق والتعقير والتعقيب من الخطباء والبلغاء مع سماجة التكلف وشنة التريد أعذر من عى من يتكلف الخطابة » (٥١) .

وفي هذه الحال لا نجد أكثر مما قلناه في « الحيوان » على أن نوضح أن في الكتاب موقفا عربيا خالصا يضيق دائرة البحث عن المهدى إليه إذا كان شخصا بعينه . إذ يجعله عربيا صليبية ، فهو يقول في أحد أجزاء الكتاب « أردنا أبقاك الله أن نبتدىء هذا الجزء من البيان والتبيين بالرد على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب » (٥٢) ولما كان الكتاب فى فنون النثر والشعر وتاريخها إلى أيام الجاحظ فقد وجب أن يكون هذا الشخص أديبا فى المحل الأول .

هذا شيء ، وأما الشيء الآخر فهو أن الكتابين - على رغم اختلاف موضوعيهما لأن الأول يشتمل على وصف الحيوان وطباعه وأثر البيئة فيه ، ولأن الثانى يشتمل على صورة للبيان العربى كما يرسمها متكلم أشتدت عنايته به - يخرج كلام الجاحظ فيهما مخرج الشمول الأدبى ، بحيث يمكن أن يزعم أن الدراسات المتعلقة بالحيوان وجدت من السهل فى اتاوتها للنزعات الانسانية أن تعتمد العبارة الأدبية فضلا عن أخاديث الأدب التى كان يعتمد عليها شحذا لهمم القراء وتنشيطا لهم (٥٣) .

ولقد يكون « كتاب الحيوان » بعد ذلك مظهرا من مظاهر الخصومة بين العربية والشعوبية - فتحة من يتعصب للبعير ، وثمة من يتعصب للفيل (٥٤) - فيلتقى من هنا بالبيان والتبيين ، لأنه إعلان عن انشط مظهر من مظاهر الحياة العربية وهو لسانها . فالجاحظ من ثم معلم وأديب ، قرا لأرسطو وجالينوس وفليمون وبطليموس ، وأحاط بحياة الفرس وأساطيرهم ، وعرف الكثير عن اليهود والنصارى تماما ، كما حفظ للعرب حيالهم وقصصهم وأخبارهم وتقاليدهم .

ان العلم ببساطة في فهم الجاحظ - على ما يظهر في كتابيه
العظيمين - هو التجربة المستقاة من الذات نفسها وعن طريقها
ومن الاطلاع المستديم ، ورسالة العلم ببساطة ايضا في فلسفة
الجاحظ - على ما يظهر في الكتابين نفسيهما - هي ارسال المعلومة
الى المتلقي بأى طريقة حتى ولو كانت هذه الطريقة مزج الجد
بالهزل !

والحق الذي لا شك فيه أن أبا عثمان عمرو بن محبوب
الجاحظ - ولم يكن بالرجل الفسيح الخيال ولا برجل العاطفة -
ولم يجد أمامه أحدا من المعاصرين ولا من اللاحقين يشبهه ، بل
أن كثيرين من السلف من أهل صنعته جلولوا أن يقلدوه فكان
مصيبهم الاخفاق النريع . ولعل الشيء الوحيد الذي يستطيع
غيره من الكتاب أن ينافعه عنه ، هو استخدام التراث العربى
بلغة تحررت كثيرا من قيود الماضين مع الارتفاع بها الى مستوى
السلامة والاثقان !

تم الكتاب

شرح وتعليقات

(١) يراجع تاريخ بغداد ١٤ : ٣٥٨ - ٣٦٠ ، مجمع الأدباء ٦ : ٥٦ وحرص الدكتور طه الحاجري على ألا يرفض أية رواية عن عام ميلاده (الجاحظ ، حياته وآثاره ٨٩ ط . المعارف سنة ١٩٦٣) في حين أصر شارل بلا على أن يكون ميلاده في عام ١٦٠ (الجاحظ في البصرة وبغداد ٩٢ ط . دار اليقظة العربية سنة ١٩٦١) . وبخصوص عروبتيه تتشابه الآراء في دعاوى مختلفة تسلم كنانيته من الخلاف فيها ، فقد يكون كنانيا صليبية وليس في هذا شيء ، وقد يكون كذلك بالولاء على ما يرويه يموت ابن المزرع ابن بنت أخت الجاحظ نفسه فيما بعد ، وهنا ينبغي أن نسلم بأن من العرب الأقحاح من كان مولى للعرب الأقحاح أيضا في الجاهلية .

(٢) النسيء تقليد جاهلي أبطله الاسلام ، وكان لقيم حق تأخير حرمة الأشهر الحرم - ذى القعدة وذى الحجة والمحرم ورجب - لغيرها رغبة منهم في القتال فيها ، واكتسبت لذلك فضلا نفاه القرآن بقوله تعالى في سورة التوبة « انما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلون عاما ويحرمونه عاما » .

(٣) سير صد الجاحظ أشياء مثل هذه في كتابه « الحيوان » راجع منه ١ : ٢٨٣ على سبيل المثال ط . الحلبي سنة ١٩٤٧ .

(٤) لم ينس الجاحظ هذه المعركة فدونها بدقة في كتابه السابق مع تعليق عليها يكشف عن حدة ذكائه ويقظته ٢ : ١٤ .

(٥) توفي هذا الرجل سنة ١٨٢ هـ (راجع المسعودي في مروج الذهب ٢ : ٢٦٥ ط . البهية سنة ١٣٤٦) وكان يقال ان الجاحظ

أخذ النحو عن الأخفش والكلام عن النظام وتلقف الفصاحة من العرب شفاهها بالمربد - معجم الأدباء ٦ : ٥٦ .

(٦) في البيان والتبيين ١ : ١٧٤ كان بين يزيد بن كثوة يوم قدم علينا البصرة وبينه يوم مات بون بعيد ، على أنه قد كان وضع منزله في آخر موضع الفصاحة وأول موضع العجمة .

يلق الباب : انفتح على مصراعيه ، أدرنقق ، اندفع فيه الناس بسرعة ، أدمج : دخله الناس جماعات ، ألصت ولوج الدار : حاولت دخول الدار ، دلطنى : دفعتنى ، الحداد : البواب ، شيخان الحى : شيوخ القبيلة ، المرية : المرأة يريد العروس ، صيتتان : فريقان ، أرمءاء : جمع رماد يريد الرماد المتخلف من الوليمة .

(٧) المعنى فى العبارة صحيح ، ولكنه فتح لأم « تلد » .

(٨) المراهقات : اللاتى خدرن ومنعن من اللعب مع الصبيان .

(٩) راجع الجاحظ ، حياته وآثاره للدكتور طه الحاجرى ١٥٢ ط . المعارف .

(١٠) راجع القصة بالتفصيل فى العقد الفريد ١ : ٢٦٦ ط . لجنة التأليف والترجمة سنة ١٩٤٨ .

(١١) كان ذلك عام ١٨١ .

(١٢) هذا مثل يضرب للرجل تكون فيه التى يحمدها من نفسه ولا يشعر بما فى الناس من الفضائل ، وأصله أن الرجل اذا أجرى فرسه فى مكان لا مسابق له فيه يفرح بما يرى من فرسه .

(١٣) راجع محمد باقر الموسوى الأصفهانى فى روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات ٤٣ ط . ايران سنة ١٣٠٧ .

(١٤) راجع ابن حزم فى الفصل ٥ : ٧٥ .

(١٥) تحسين مراجعة الحيوان ٢ : ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ - ٢٣٤ : ٣٢٠ - ٢٤٨ : ٦ - ٢٩٩ .

(١٦) يشير الى قوله :

جالست يوما أبانا لا در در أبان
ونحن حضر رواق الأمير بالنهروان

راجع الحيوان ٤ : ٤٤٨ .

(١٧) حجاج النبوة ص ١٤٧ ط . القاهرة سنة ١٩٣٣ .

(١٨) مقالات الاسلاميين ١٩٠ ، ١٩١ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ .

(١٩) روى أنه قيل للجماز : رأيناك في دهليز فلان وبين يديك قصعة وانت تأكل ، فمن أي شيء كانت القصعة وأي شيء فيها ؟ قال : قىء كلب فى قحف خنزير (البخلاء ٦٤) .

(٢٠) الحياة الأدبية فى البصرة للمؤلف ٩٦ ط . دار الفكر بدمشق ١٩٦١ ومقالات الاسلاميين ١ : ٧١ - ٧٤ .

(٢١) فى كتاب الجاحظ « القول فى البغال » ويسمى أيضا « البغل » الذى يرجح أنه ذيل للحيوان ما يدل على أن الجاحظ كان سنة ١٩٩ بالنهروان عندما كان الحسن بن سهل قادما من خراسان - راجع الجاحظ ، حياته وآثاره ٢١٤ .

(٢٢) راجع الحيوان ٢ : ١٩١ .

(٢٣) الخبر بالتفصيل فى الأغاني ٩ : ١١٨ ط . دار الفكر بيروت سنة ١٩٥٥ .

(٢٤) البيان والتبيين ٣ : ١٠٤ والقراكدن فارسية من قزاي حريز ومن آكد او آغند أي محشو بتقدير قبا أي قباء أو ثوب ، فيكون المعنى ثوبا محشوا قزا أي مبطنًا به .

(٢٥) يريد أهل السنة ، وفي الحديث الشريف « ٠٠ وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة » الفرق بين الفرق لأبى منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي ١٠ ط . مكتب نشر الثقافة الاسلامية سنة ١٩٤٨ .

(٢٦) هذا رأى أساسى من آراء المعتزلة نجده عند الحسن البصرى أولا وهو شيخهم وأول من قال بالقدر ، وضمنه بشر ابن المعتز أرجوزته المشهورة فقال « يبدأ من عمرو ومن معاوية » .

(٢٧) أى الأغمار والنشء الصغار ويراد بهم أهل الحديث السنيين الذين نبتوا أيام الجاحظ ونادوا بالاحتجاج لمعاوية ، ثم اشتغلوا بالسياسة حتى هددوا عرش الخلافة ، فأمر المأمون بالتنكيل بهم .

(٢٨) أشار الى هذه الكتب فى الحيوان عندما قال فى مقدمته : « وعبتنى بكتات القحطانية وكتاب العدنانية فى الرد على القحطانية ، وزعمت أنى تجاوزت فيه حد الحمية الى حد العصبية وأنى لم أصل الى تفضيل العدنانية الا بتنقص القحطانية . وعبتنى بكتاب العرب والموالى ، وزعمت أنى بخست الموالى حقوقهم ، كما أنى أعطيت العرب ما ليس لهم » راجع المقدمة ١ : ٤ ، ٥ .

(٢٩) يذكره ياقوت فى معجم الأدباء ٦ : ٧٧ بكتاب « التسوية بين العرب والعجم » وذكر أيضا كتاب « فخر القحطانية والعدنانية » .

(٣٠) تكلم فى « الصرحاء والهجناء » عن السودان أشباه الخالص وقصد بهم العرب .

(٣١) المقصود ثورة العبيد التى اشتعلت ناراها فى السادس والعشرين من رمضان سنة ٢٥٥/٨٦٩ واستمرت أربعة عشر عاما . وكان عامة الثوار من زنج الصومال وزنجبار الذين عملوا فى سهول

البصرة ، ورأسهم « بهبود » الفارسي الذي تسمى باسم محمد ابن علي زاعما انه عربي قح .

(٣٢) ذكرها ياقوت باسم كتاب المغنين مرة وأخرى بذلك الاسم ٦ : ٧٧ ، ٧٨ ونشرها عبد السلام هارون باسم « كتاب القيان » - رسائل الجاحظ ٢ : ١٤٣ ط . الخانجي سنة ١٩٦٥ .

(٣٣) ذكر ياقوت في قائمة كتب الجاحظ « كتاب النساء » مع « كتاب الجوارى » - معجم الأدباء ٦ : ٧٦ ، ٧٧ ويبدو انه أراد أن يجعله جزءا من أجزاء الحيوان لانه وعد أن يتكلم في « فصل ما بين الذكورة والاناث » وقارىء الكتاب لا يجده فكتانه شرع فيه فلما طال جعله مستقلا ، وليس في أيدينا من هذا الكتاب الا بقايا مضطربة على ما نرى في هامش الكامل للمبرد ١ : ١٣٠ - ١٦٦ ط . مصر سنة ١٣٢٣ ويرى الدكتور طه الحاجري أن هذا الكتاب في حقيقته أول كتاب عن الحب في العربية وليس كتاب الزهرة لداود الظاهري - الجاحظ ، حياته وآثاره ٤٣٨ .

(٣٤) العقد الفريد ٥ : ١٢١ ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٨ وتاريخ أبي الفدا ٢ : ٣٥ ط . القسطنطينية سنة ١٢٨٦ .

(٣٥) حاول أبو منصور البضادي في كتابه « الفرق بين الفرق » أن يلخص الجاحظية في الاعتزال مشنعا منددا ١٠٥ ، ١٠٦ . (٣٦) اعتمدنا على مجهود الدكتور طه الحاجري في حصر إنتاج هذه الفترة للجاحظ - راجع الجاحظ ، حياته وآثاره ٣٢١ وما بعدها .

(٣٧) تسمى أيضا « كتاب الآداب » كما جاء في العقد الفريد ٣ : ٢٨ وينبغي أن نقرر هنا أن اعجاب الجاحظ بابن المقفع - الذي رأيناه منذ قديم - ظهر فيها ليس في بعض الصياغات فحسب على الرغم من أن منهج ابن المقفع اعتمد الرواية في حين اعتمد الجاحظ

النظر والاستقصاء ، وانما أيضا في وقوعهما على المحفوظ من كلام الناس وتصفحهما عقول العاملين بأخلاق النبيين وذوى الحكمة من الماضين والباقيين ، هذا مع ملاحظة ان الجاحظ كان يبدو في بعض الأحيان في موقف المعارض لكثير مما ذهب اليه ابن المقفع .

(٣٨) في هروج الذهب ٢ : ٣٦٩ ، ٣٩٤ ان أحدا ممن سلف من خلفاء بنى العباس لم يظهر في مجلسه من العبث والهزل والمضاحك ما أظهره المتوكل ، كما قيل انه لم تكن النفقات في عصر ما مثلها في أيام المتوكل . وقد أنفق على الهاروني والجعفرى أكثر من مائة الف درهم مع الاكثار من الموالى والجند الشاكزية ، ومات وفي بيوت المال أربعة آلاف دينار وسبعة آلاف درهم . ولا يعلم أحد في صناعته في جد ولا هزل الا وقد حظى بمال موفور منه ، وكان من أبرز شعراء عصره البحترى والخليع وعلى بن الجهم .

(٣٩) كثيرا ما يختلط الأمر على الدارسين - كعبد السلام هارون ومحمد خفاجى - فلا يفرقون بين أبى الحسن عبيد الله بن يحيى ابن خاقان وزير المتوكل والمعتمد وبين الفتح بن خاقان بن أحمد أو ابن غرطوج الذى كان أبوه أحمد قواد المعتصم ، ونشأ هو في القصر حتى أنزله المتوكل منزلة الأخ . وقد صرع ليلة هوجم المتوكل ، ووصف المسعودى ٢ : ٣٩٣ مقتلها وصفا مؤثرا ، ومدحه البحترى بشعر كثير ، واعترف البرد بفضلها عليه ، وذكر أبو هفان أنه أحد ثلاثة اهتموا بالكتب والأخبار الجاحظ وعلى ابن يحيى النجم الأديب المتطرب .

(٤٠) راجع رسائل الجاحظ ١ : ٣٨١ وفي الرسالة يقول الجاحظ « فخذ يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كل الأدب فانك ان أفردتهم بشيء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوا » وهذا يبين بسهولة مضمون الرسالة .

(٤١) كتب في هذه الأثناء « كتاب الرد على النصارى » و « كتاب الرد على اليهود » .

(٤٢) الرسالة في كتاب رسائل الجاحظ ١ : ٥ بعنوان « مناقب الترك » وهى قسمان أولهما كتبه الجاحظ أيام المتوكل ، وثانيهما كتبه أيام المعتصم ، ولكنه ضم الجزء الثانى الى الجزء الأول وقدمه الى الفتح بن خاقان قائلا ان الجزء الثانى لم يتح له أن يصل الى المعتصم « لأسباب يطول شرحها » .

(٤٣) القصيدة كاملة فى الرسائل ١ : ٣٢٥ وقد اختار منها ياقوت أبياتا تختلف فى صياغتها عما أثبت فى قصيدة الرسائل - معجم الأدباء ٦ : ٧٩ واكتفيت أنا بصنيع ياقوت .

(٤٤) أنظر له « رسالة فى مدح النبىذ » مع أنه كتب « رسالة فى ذم النبىذ » وله أيضا « الشارب والمشروب » - معجم الأدباء ٥ : ٧٧ .

(٤٥) كتاب البخلأ أوضح صورة لذلك .

(٤٦) راجع له « رسالة الجوارى » و « كتاب الأنس والسلوة » و « كتاب المقينين والفناء والصنعة » .

(٤٧) راجع ياقوت فى معجم الأدباء ٦ : ٧٥ .

(٤٨) فى الحيوان عن محاولة أحد المعاصرين تعليم الذئب ٧ : ٢٥٣ أن الخصى العبدى الفقيه حدثه عن ذلك « فى الأيام التى قام بها أمير المؤمنين المتوكل على الله » أى أن كتاب الحيوان وضع أو شرع فى وضعه خلال السنوات التسع الأخيرة .

(٤٩) راجع الحيوان ٤ : ٢٠٨ .

(٥٠) البيان والتبيين ١ : ١٩٥ ط . التجارية سنة ١٩٤٧ .

(٥١) السابق ١ : ٢٩ ، ٣٠ .

(٥٢) السابق ٢ : ٣ .

(٥٣) كان الجاحظ يقول « متى خرج - يريد القارىء - من
أى القرآن الى الأثر ومتى خرج من أثر صار الى خبر ، ثم يخرج
من الخبر الى الشعر ومن الشعر الى نوادر ، ومن النوادر الى حكم
عقلية ومقاييس سداد ، ثم لا يترك هذا الباب ولعله يكون أثقل
والملا ليه أسرع حتى يفضى الى مزح وفكاهة والى سخف وخرافة
ولست أراه سخفا » .

(٥٤) يمكن أن نجعل المناظرة فى الفأر والسنور ردا من العرب
على الجوس ، لأن زرادشت - على ما أورد الجاحظ فى الجزء
الرابع من الحيوان - يزعم أن الفأرة من خلق الله وأن السنور من
خلق أهرمن أو إبليس : ويقول عن غانم العبدى الرفيع ٧ : ٣٥
« فمن حمقه أنه هندی وهو يتعصب على الفيل » اذ المفروض
أن يقف فى صفه ! .

فهرست

الصفحة

المقدمة ٣

الباب الأول البحث عن طريق

٩	١ - عمرو بن بحر
١٦	٢ - أبو عثمان
٢١	٣ - في المربد
٢٩	٤ - الرحلة الأولى
٣٥	٥ - في المعترك
٣٩	٦ - مع الأيام
٤٤	٧ - معارف جديدة
٥٠	٨ - بين السياسة واللّهو
٥٥	٩ - ليس ابليساً
٥٩	١٠ - في المسجد الجامع
٦٥	١١ - المفنّاجاة
٦٩	١٢ - الأغراء
٧١	١٣ - مجلس من المجالس
٧٤	١٤ - ساعة لهو
٧٨	١٥ - مشروع

٨١	١٦ - الكتاب الأول
٨٤	١٧ - هذا القبيح الوسيم
٨٧	١٨ - عن الشعر
٨٩	١٩ - على مدار الأيام
٩٥	٢٠ - الى المأمون

الباب الثاني

شيخ الكتاب

١٠١	١ - ديوان الرسائل
١٠٦	٢ - ايام الديوان الثلاثة
١١١	٣ - العجلة تدور
١١٤	٤ - مناقشة
١١٩	٥ - رحلة جديدة
١٢٤	٦ - مدح التجار
١٢٨	٧ - الوثائق
١٣٤	٨ - مزاح وسخرية
١٣٧	٩ - كتاب البخلاء
١٤٣	١٠ - على حافة الهاوية
١٤٨	١١ - جائزتان
١٥٤	١٢ - حاجة الامة والجاحظية
١٦٠	١٣ - عاصفة
١٦٦	١٤ - الرجل المريض
١٧٠	١٥ - السنوات التسع الاخيرة
١٧٥	١٦ - كلمة قد يستغنى عنها
١٨٠	١٧ - الشروح والتعليقات

صدر من سلسلة أعلام العرب

المؤلف	اسم الكتاب
عباس العقاد	١ - محمد عبده
على أدهم	٢ - المعتمد بن عباد
د . زكى نجيب محمود	٣ - جابر بن حيان
د . على عبد الواحد وافي	٤ - عبد الرحمن بن خلدون
د . محمد يوسف موسى	٥ - ابن تيمية
ابراهيم الابيارى	٦ - معاوية
د . محمد أحمد الحفنى	٧ - سيد درويش
د . أحمد بدوى	٨ - عبد القاهر الجرجاني
د . على الحديدى	٩ - عبد الله النديم
د . ضياء الدين الرئيس	١٠ - عبد الملك بن مروان
أمين الخولى	١١ - مالك
د . عبد اللطيف حمزه	١٢ - القلقشندى
د . أحمد محمد الحوفى	١٣ - الطبرى
د . سعيد عبد الفتاح عاشور	١٤ - الظاهر بيبرس
د . محمد مصطفى حلمى	١٥ - ابن الفارض
د . على حسنى الخربوطلى	١٦ - المختار الثقفى
د . سيدة اسماعيل الكاشف	١٧ - الوليد بن عبد الملك
د . أحمد كمال زكى	١٨ - الأصمعى
صبرى أبو المجد	١٩ - زكريا أحمد
د . ماهر حسن فهمى	٢٠ - قاسم أمين
أحمد الشرباصى	٢١ - شكيپ أرسلان
د . عبد الحميد سند الجندى	٢٢ - ابن قتيبة
محمد عجاج الخطيب	٢٣ - أبو هريرة
د . جمال الدين الرمادى	٢٤ - عبد العزيز البشرى
محمد جابر الحينى	٢٥ - الخنساء
د . أحمد فؤاد الاهوانى	٢٦ - الكندى
د . بدوى طبانه	٢٧ - صاحب بن عباد
د . محمد عبد العزيز مرزوق	٢٨ - الناصر بن قلاوون
أنور الجندى	٢٩ - أحمد زكى
د . سيد حنفى حسنين	٣٠ - حسان بن ثابت

عقيد محمد فرج	...	٢١ - المثنى بن حارثه الشيباني
عبد القادر أحمد	...	٢٢ - مظفر الدين كوكبورى
د . ابراهيم أحمد العدوى	...	٢٢ - رشيد رضا
د . محمود أحمد الحفنى	...	٢٤ - اسحاق الوصلى
د . زكريا ابراهيم	...	٢٥ - أبو حيان التوحيدى
د . أحمد امام زكى	...	٢٦ - ابن المعتز العباسى
د . ماهر حسن فهمى	...	٢٧ - الزهاوى
د . عائشة عبد الرحمن	...	٢٨ - أبو العلاء المعرى
د . حسين فوزى النجار	...	٢٩ - أحمد لطفى السيد
د . فؤية حسين	...	٤٠ - الجوينى امام الحرمين
د . سعيد عبد الفتاح عاشور	...	٤١ - صلاح الدين الأيوبى
محمد عبد الفنى حسن	...	٤٢ - عبد الله فكرى
د . على حسنى الخربوطلى	...	٤٣ - عبد الله بن الزبير
أنور الجندى	...	٤٤ - عبد العزيز جاولى
عبد الرؤف مخلوف	...	٤٥ - ابن رشيد القيروانى
محمود خالد الهجرى	...	٤٦ - محمد عبد الملك الزيات
محمود غنيم	...	٤٧ - حفنى ناصف
د . سيدة اسماعيل الكاشف	...	٤٨ - أحمد بن طولون
أحمد سعيد الدمرداش	...	٤٩ - محمود حمدى الفلكى
محمد عبد الفنى حسن	...	٥٠ - أحمد فارس الشدياق
د . على حسنى الخربوطلى	...	٥١ - المهدي العباسى
د . محمود رزق سليم	...	٥٢ - الأشرف قانصوه القورى
د . حسين فوزى النجار	...	٥٣ - رفاعة الطهطاوى
د . محمود أحمد الحفنى	...	٥٤ - زرياب
د . حسن أحمد محمود	...	٥٥ - الكندى « المؤرخ »
د . زكريا ابراهيم	...	٥٦ - ابن حزم الأندلسى
د . بول غليونجى	...	٥٧ - ابن النفيس
د . سعيد عبد الفتاح عاشور	...	٥٨ - السيد أحمد البدوى
د . محمد مصطفى هداره	...	٥٩ - المأمون
محمد عبد الفنى حسن	...	٦٠ - المقرئ
عبد الرحمن الرافعى	...	٦١ - جمال الدين الأفغانى
د . أحمد فهمى زكى	...	٦٢ - الجاحظ